ورد شان
وحكايات أخرى

عنوان الكتاب : ورد شان وحكايات أخرى
الموضوع : مجموعة قصصية
التأليف : ميادة أبو يونس
مراجعة لغوية : عمرو وسالم سواح
الإخراج الفني : عمرو سالم سواح
تصميم الغلاف : داليا رشوان #غرّد_للعالم
الطبعة الأولى : 2019
رقم الإيداع : 2019/1543
الترقيم الدوليّ : 978-977-6639-48 -5
الناشر : دار تويتة للنشر والتوزيع

tweetpublishing2017@gmail.com
www.facebook.com/Tweetforpublish
٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري
٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩/٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

ورد شان

وحكايات أخرى

مجموعة قصصية

ميادة أبو يونس

تويتة
Tweeta
للنشر و التوزيع

الإهداء

إلى أبي البار . . إلى روحه الطاهرة . . أعلم أنك لم تعد بحاجة للقراءة، ولكني سأواصل الكتابة لذكرك الخالد .

إليك أكتب .

وإلى كل العالقين على أعراف الذكريات، أن عودوا إلى الواقع .

يوجد معلمون مزيفون وأساتذة مزيفون في هذا العالم أكثر عدداً من النجوم في الكون المرئي.

شمس التبريزي.

(المجذوب)

في مفترق الطرق تركني المسيح الكاذب ورحل، في البدء قال اتبعني، اتبعته على وجل مضطرب، إلا أن صدري لم يهدأ من الظن، فالظن لو تعلمون عظيم يكفي أن يقض مضاجعكم ويهز أمنكم وورعكم.. كان المجذوب ذا جثة طويلة ويابسة، خالية من الشعر، له عيون حادة كصقر جائع، وأنف طويل أعوج بعض الشيء وبشرته تميل إلى الصفار، وشعر رأسه الأسود بالكاد يلامس كتفيه.

كان المجذوب سكيرًا قلما يخرج من المواخير مصطحبا وعيه، بل كان يصطحب نيابة عنه ساقطة تجذبه من ياقته المتدلية على صدره اليابس الخشن، وتشده من إحدى ذراعيه وهي تنعته بأقذع الألفاظ النابية، وينحنيان سويا ناحية أحد المنعطفات ومن ثم يغوصان في سواد الليل.

على أية حال قد يتغير أي شيء وينقلب روتين العالم على نفسه ولكن لن ينقلب المجذوب على عاداته المشينة، ربما إذا رأيته لعرفته على الفور من قميصه البالي، وسرواله المهترئ بالثقوب ومن كوفيته ذات النسيج المهدم. وعلى الرغم من مظهره الفقير جدًّا إلا أنه يعرف كيف يحافظ على بقايا وقاره المنصرم، فهو يحتفظ ببذلة زرقاء يذهب بها إلى عمله كل صباح، وهي إرثه الوحيد من والده الذي هجر أمه منذ سنوات طويلة، وهجرت الأم ابنها بعد عدة سنوات أخرى.

ربما تجده يمشي في الأسواق بين الناس مثلنا وينطق بصوته الأجش بمواعظه، وما العيب في أن يكون سكيرًا واعظًا، علنا نأخذ العظة من أفواه العصاه.

عبرنا سويا العديد من الحارات والأزقة، اصطفت الحوانيت على جانبي الطريق غير أن الممرات كانت ضيقة خالية من كل شيء حي ولكن ذاكرتي أخذت تزدحم بتلك التفاصيل خالية القيمة، وحينها بصرت الأفق يتشح بالغروب وحين اشتد الغسق صارت الرؤية ضعيفة إذ أن أعمدة الإنارة خربة كجدران الحوانيت المهدمة، وكانت أرصفة الأزقة خربة أيضا.

أخيرًا، استقرينا عند أحد ممرات الكفر، وهنا حيث ثبتت أقدامنا يسكن المجذوب، حارة قبيحة يفوح من جوانبها النتانة والعطن حيث رائحة السمك النيء العفن ودماء الأوز الفاسد، وتراكم القمامة المترامية على أديم الأرض.

تقول حكمة هندية: ((إن حرية الإنسان ليست في التحرر من الألم، بل في احتماله وتحويله إلى إيجاب وفرح))؛

هل تستطيع أيها الصديق أن تحيل هذا المشهد العكر المملوء بالروائح الفاسدة إلى شيء من الإيجاب والفرح؟؟

قال ذلك المجذوب وهو يصعد الدرج الخشبي المتهالك إذ يُصدرُ صريرا عاليا ومزعجا.

أجبته: منذ حين فقدت قدرتي على كل شيء. ثقتي بنفسي والعالم انهارت بشكل عظيم.

فتح الرجل باب بيته العتيق وأتبعت أثره في الدخول.

كان البيت فارغًا لا أثاث فيه ولا تفاصيل، فقط حصيرة من الخوص بالكاد تماسكت أعوادها المتجاورة، أما الجدران كانت أسمنتية خالية من أي دهانات وبها كوة صغيرة لا غير لا تسمح لأشعة الشمس بالدخول. أحيانا قد يتسرب إليها بعض أطياف النهار. بينما السقيفة مبطنة بالخشب الرديء. في إحدى الزوايا سكن مقعد خرساني مليء بالأتربة والغبار، وعلى الرغم أن أجواء البيت تخلو من السكينة إلا أنني مضطر للبقاء، فبعد أن طردني أبي لم يعد لي مكان، فالدنيا على رحابتها صارت أضيق من ثقب إبرة.

جلست على الحصيرة المتهالكة بينما أخذ الرجل في تجهيز مشروب البوظة البارد، ثم أتى وجلس القرفصاء وأخذ يتجرع من قنينته وهو يفرك في جبينه الشاحب ثم قال:

- أراك عصي علي. لا تمنح عقلي جوابا مرضيا، فما الذي تعنيه بالضبط؟

أجبته:

-أعني أن العالم أصبح يمثل تهديدًا حقيقيا علي. أراه مرعبا ويراني تبعا لذلك غريبا.

المجذوب: كلنا غرباء نشحذ سعادة زائفة ووهما غير موجود؛ لقد أورثنا الله الكبد والمعاناة. ولكن، دعني أسألك سؤالا:

-"هل ارتكبت إثما عظيما ذات يوم؟".

أجبته:

-دعني أخبرك قصة، في أحد الأيام هجم ذئب على حملي الوديع فقتل أبي الذئب وأطعم الحمل البريء. وفي مساء اليوم التالي ذبح أبي الحمل حتى لا يقتلنا الجوع، وحين بلغت أشدي ارتكبت الحماقة نفسها. فذات يوم قتلت هرة حاولت اللحاق بفأر ثم تطهرت من جريمتي. وفي اليوم التالي قتلت الفأر لأنه كاد أن يفتك بحشرة ضعيفة، وفي صباح اليوم الثالث سحقت الحشرة بيدي لأنها كادت أن تسرق حبات من طعامي. وحينها فقط أدركت أن كل منا يقاتل من أجل خبزه وأن لا وجود للملائكة على الأرض. وحيث لا توجد رحمة يوجد صراع أبدي وخالد بين الكل.

تثاءب المجذوب ثم أومأ برأسه وهو يقول:

-إذن كلنا قتلة، مجرمون من رءوسنا حتى أخمص أقدامنا. كم هي رخيصة منكرة تلك الحياة..

صمت هنيهة ثم قلت:

-لكل منا حماقته فما هي خطيئتك؟

تجرع من قرورته حتى الاكتفاء ثم أشاح بها بعيدًا، بعيدًا جدا وكأنه يلقي بأثمه العظيم بعيدًا عنه ثم تنهد وبحنجرة متحشرجة وصوت متهدج قال:

- أجل، لكل منا خطيئة أولى، ترافقه ككابوس مزعج أينما ثقف. إن الحياة معاناة طويلة، والشقاء إرثنا السماوي؛ ألم نهبط إليها جميعًا لنشقى؟ فما ذنبي أنا إذا جبل الإنسان على الجهل والفضول! فما هو ذنبي وذنب كل من سبقني إلى الدنيا لنحصد هذا الثمار الخبيث؟

ابتلع ريقه وهو يلف ورقة البفرة التي مزجها بالحشيش وبقايا التبغ ثم لعقها من الأطراف وأشعلها لتتناثر دخائن الخشخاش في كافة أنحاء الحجرة، ثم أردف:

- لعل في هيئتي الفقيرة ونعلي المرقع ما يوحي بالفقر ولكن في الحقيقة أنني زاهد. لأنني لا أنتظر أحدا، ولا أتطلع لشيء.. والقوة كلها في التخلي.. ولكن دعني أسألك سؤالا: "لماذا لم يرسل الله رسلا أغنياء؛ فهم تارة رعاة وتارة رحل هل هناك تعارض بين الغنى والورع؟ وأيهما أقرب إلى الاستطاعة في التخلي إذا توفرت القدرة على الامتلاك، الغني أم الفقير؟؟

أسئلة عسيرة، فإن يتخلى المعدم بعد أن أمتلك، بمثابة أن تحطم قارورة ماء لصائم، فالظمآن يرى الماء مقدسا. ولكن أن تجبر الغني أن يتخلى فذلك إلى عقله أصعب إذ أن الدنيا استقرت بين قلبه ووريده وأصبح التخلي جد صعب، ألم تر الشاب الغني الذي أراد أن يرافق المسيح

ولكن حينما طلب منه يسوع التخلي عن ثروته تراجع الشاب عن اتباعه! وحينها قال يسوع ((مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله)) عل الفقير تمرس على الفقد بينما الآخر فلا.

قال المجذوب: الحق أقول لك، الأمر لكلاهما صعب.. أما عن كون الله لم يرسل رسولا غنيا فذلك لأن التخلي لا يجعل من المرء نبيًّا بل يجعله إلهًا..

قاطعته: ولكنك لم تجاوب على سؤالي، ما هي جريمتك التي أخرجتك من الجنة؟

المجذوب: انظر أيها الرجل، بداخل كل منا قابيل ناضج وهابيل أعوج. فأما هابيل فنحن نحتقره لخنوعه وضعفه؛ فإذا كان قابيل قد أخطأ بحقده وبارتكابه جريمة بشعة فكذلك أيضًا أخطأ هابيل باستسلامه وضعفه. ومن هذه المأساة جاء كل بؤسنا، انظر سترى للأشرار حياة مديدة في الطغيان كقابيل، بينما سترى للأخيار مزيدًا من البؤس والموت كهابيل. لقد خلق الله الشر ولم يقل اتبعوه ولكنه بطريقة أو بأخرى يدافع عن استمراريته فإنه ضرورة لصيرورة الحياة.

كان صباحا وكان مساء وكانت أمسيات عديدة تشهد قولا غير فعل وفعلا غير قول. أقوال عديدة يقسم بها المجذوب وأفعال أخرى تنكر كل أيمانه الباطلة، فكان يحرم الخمر ويشربه ويقول هكذا يصنع العظماء والمرشدون، بل إنه كان سكيرًا شرهًا، والحقيقة أنه كان شديد النهم حيال

كل غرائزه. في وضح النهار واعظًا وفي كبد الليل سكيرًا، زانيًا. يقول((دع ما للنهار للنهار، وما لليل لليل)).

كان السوق يعج بالعامة وكنت أسيح مع المجذوب، أحمل على ظهري جعبة مليئة بالسهام. أما هو فكان يلقي خطبه على متسولي السوق إذ يقول ((لم آتي لأدعو من لا يسمع، ومن لا يبصر؛ بل هؤلاء رعاع وجرابيع لا يخصونني. بل جئت لأخلص الأبرار وأمسح على قلوبهم، هؤلاء الذين خدعتهم التجربة، آذاهم الشرير جدا. إنما بعثت من أجلكم جميعًا لأنقذ أرواحكم المعذبة. ولتكن عدن عاقبة الأخيار)).

كان هناك على الضفة الأخرى فتاة من الرعاة الغجر تهش بعصاها الغليظ على أغنامها، بينما على حافة الجسر الذي يفصل بين السوق وكفر حميد كانت هناك غزالة صماء تهرول مبتعدة عن شيء ما، وحش ما، بمحاذاة بحيرة ضحلة أخذت تستريح وتنظر بعيونها الناعسة الحزينة، بقلق مفرط، ومن حين لآخر كنت أناديها، أواسيها، بيد أنها لا تأبى أو لا تسمع سيان لدي، فهي مثلي تمامًا متفردة بالضياع والغربة ومنصاعة إلى المجهول.

على حين غفلة اقترب المجذوب من راعية الأغنام، كانت فتاة صهباء حديثة السن، نحيفة القوام، لا هي طويلة ولا قصيرة، ذات شعر أصهب مموج، أخذت الفتاة تداعب أغنامها بعصاها الغليظة بينما باليد الأخرى فكانت تضم شالها الأخضر القصير حتى لا ينكشف لعابري السبيل أي من

جمالها، أما عباءتها فكانت بيضاء فضفاضة مضمومة من الخاصرة. بلا أدنى شك فإن ثوبها خشن، مهلل من القماش الرخيص يوحي بالبساطة والفقر، أضف إلى هذا فإن عينيها تشعان جهلا وسذاجة.

اقترب الرجل -المجذوب- وهو يقول: "يا إمرأة، دعي أغنامك واتبعيني".

نظرت الفتاة نظرة بلهاء، ثم سألته سؤالا وكان الحري بها ألا تسأل: "وماذا عن أغنامي؟".

المجذوب: دعي ما للدنيا للدنيا، واتبعيني تتبعي الحق.

أجابته والقلق ملء جوفها: الله له عباد كثيرون أما أغنامي ما لهم غيري.

المجذوب: الرب يختبرك فقومي عنهم واتبعيني.

كان للمجذوب عينان حادتان تخلوان تماما من أي انفعال، وكانت الفتاة ملء عينيها طهر ونقاء. كانت الفتاة قد استحالت حمرتها إلى البنفسج القاتم. وهي تقول: هل تضمن لي نعيم الجنة إذا تركت ما لي في الدنيا؟

رمقها بجفاء، ونظر يمينا ويسارا ثم أومأ:

- علام المساومة اللعينة إذا كنتِ فقيرة لا تملكين سوى نعل أذابته الطرقات الواعرة؟! حتى تلك الحيوانات البائسة بالتأكيد ليست ملكا لكِ بل لأحدهم.

- بلى، هو كذلك ولكن ليكن ما المشكلة في رعاية الأغنام وإعطائها حق رعايتها حتى وإن لم تكن ملكي ولكنها رزقي الوحيد، هي دنيتي الكبيرة.

أجاب بنبرة حازمة: اتركي ما للأرض للأرض دعيها لأصحابها. إنني جئت لأهبك نعيما لا يبور وملكوتا خالدا، اتركي الخطية يأتيكِ الرب بنعيمه الأزلي والدائم.

تراجعت الفتاة خطوة للوراء وهي ترنو إليه بخوف، وتضم الشال باستحياء على صدرها أكثر فأكثر وكأنها تعتصر به خوفها المفرط، قالت:

- على ما أظن أن ما تطلبه مجحفا؛ فأنا بلا خبرة وأخشى أن أعبر نهرًا غير ضحل، أخاف كثيرًا أن يصبح مصيري كمصير تلك الغزالة الفارة. ألا ترى أن روحها تشبعت باليتم والاغتراب!!

امتدت يد المجذوب إليها وأخذ يضمها ضما، أما هي فانذوت بداخله كطفلة سقطت في حجر أمها للتو.

أخيرًا سار كل منا بمحاذاة الآخر، وكان جسدي يتصبب عرقًا وحنجرتي يابسة كالحجر، ومعدتي تعتصر من الجوع. أما هي -أي الفتاة- فكانت نصف جوعانة، ونصف متهالكة، بيد أن السير يقسو على أقدامها الضعيفة ولأن نعلها ممزق فأخذت حبات الرمل وكريات الحصى تتسرب إليها وتؤذيها، أما المجذوب فلم يكن يعر أي من ذلك اهتماما فهو رجل لا يكل ولا يتعب.

حينما بلغنا مفترق طرق كان قد جنَّ علينا الليل، وفي الليل المجذوب يتبدل، يستحيل طهره إلى نجاسة، وعفافه إلى قذارة، واستفاقته إلى سكر، يصبح عِرْبِيدًا، لا يفقه عن دينه شيئا، ولأنه يؤمن بأننا لا بد وأن ندع ما

للنهار للنهار وما لليل لليل وبما أن الليل قد أقبل بوحشته، فكذلك أيضًا أقبل المجذوب بوحشيته، وفسقه.

كان يحيط بثلاثتنا صمت عميق وعزلة شديدة، في وقتها ودون أن يدري، وكأنه جبل على هذا.

راح المجذوب يجرجر الفتاة ويرمي بنفسه عليها وهي تصرخ، ترجو منه إطلاق سراحها ولكن دون أمل فقد خلب أنيابه بجسدها الهزيل، ألقى بها نحو الأرض ولطمها بكفه الغليظ وتتابعت اللكمات حتى استحال لونها الوردي إلى الزرقة وتورمت عيناها، أما أنا فرحت أنهره، أوكزه بالسهام دون فائدة وكأنه لا يحس ولا تدميه الجروح، أما هي فكانت تستغيث دون جدوى وهو يكمل دون شفقة أو عطف، سحبها وربطها إلى جذع شجرة وأخذ ينجرف في فسقه.

حينما انتهى كانت البائسة محاطة بالحصرة وفاقدة للوعي، أما هو فرحل ملطخ بالعار من قمة رأسه حتى أخمص أقدامه.

وهكذا في مفترق طرق تركني المسيح الكاذب ورحل، ولأن أبي طردني فالدنيا تضيق علي، ولأن الفضيلة لا تقابل بالاحترام في عالم مليء بالغوغاء؛ فإنني أبدًا لن أعود، لا لأبي ولا للدجال، فأنا المغترب في عمق الضجيج والثرثار في غور العزلة.

أنا المجذوب، لأنني لا أتبع المجاذيب.

عجبت لمن به القبح، وبملء فاهه يذكر سوء غيره.

وعجبت أكثر لمن يظهر البر وفي قلبه ابتلاء لا يبرأ.

والأعجب من كل ذلك الصبر على البذيء الأحمق.

(بلا غفران)

إذا أردتَ العشقَ فعليكَ اتباع دربِ الخطيئة؛ فقد وُلِدَ الحبُّ في أحضانِ الرغبةِ الجامحة، وكلما لعبَ الفراقُ دورَه بجدارةٍ اشتعلت الرغبةُ بالضرورة؛ مع هذا فإن القدرَ يجرؤُ على أن يوقعَ بالعشاقِ في فخِ الفراقِ والغربةِ الروحيةِ إما أن يسلبَهُم ذواتهم أو يسرقَ آمالَهم البريئة.

لا حبَّ بعقلٍ ولا منطقَ مع أصحابِ الهوى إما أن تكونَ عاشقًا أو ذا عقلٍ وجفاء، لك الخيارُ وحدك ولك من الألم حظٌ وقدرٌ.

أنتِ الحالمةُ التي دوما تتمنى البقاء بقربِها لطالما قال لا حياة له دونك، كم من الأيام قضاها في ذكر أشواقِه الغزيرة، وكم من ليالٍ بات بعينٍ كليلةٍ مؤرق بالوحدةِ والفراغِ المدمر، لا أحدَ يحتملُ أن يذوقَ عذاباتِه المريرةِ في حبك غيرِ الرحيم.

رجلٌ مثله غيرُ قادرٍ على مجاراةِ بائعة هوى، ثخينٌ فؤادُه العجوزُ بالجرحِ الموجعِ، أنت وحدُك العلةُ في آلامِه، لقد ضاق صدرُه بالأسى وأوشكت نفسُه العليلةُ على فراقِ الحياةِ تاركًا خلفَه ابنةً سقيمةً وزوجةً لا تستحقُّ منه الخداع.

إنه لأمرٌ عجابٌ أن أكونَ أنا زوجته وفي الوقتِ نفسِه صاحبَة مرسالِ الرجاء، أرجو منك الحضورَ السريعَ لعله يموتُ بسلامٍ على صدرِك الحنونِ ولك مني نظيرَ حضورِك أجرٌ وثواب.

عزيزتي فريسة الخداع:

آسفةٌ أنا كل الأسفِ على ما أصاب زوجَك النبيل، وحقًّا لا أدرى أي الرجالِ هو! فكيف لأبٍ ابنتُه مسكينةٌ جليسةُ الفراشِ يلقي بها خلف ظهرِه، ويتبع ملذاته الرخيصة! أتذكَّرُ يا عزيزتي الزوجة قصةً لفتاةٍ مثلِها هي الآن امرأة وضيعة، ترك الزوجُ الأحمقُ أبناءه البؤساء؛ إرضاءً لها، كم أنا حقًّا آسفة من أجلِكم ولو كانت كلُّ الأمهات مثلك ما أصبحتُ على ما أنا عليه الآن، ولكن فاقد الشيءِ لن يهبَه عن رضا قلب، كما أنني أرى والدي فيه وهو لا يستحق شيئًا من الرحمة، وإن حضر شبحُ الموتِ لأجلِه لا تقيمي له جنازةً وقداسًا، صدقيني هو لا يستحق، لقد كنت أنت أنثاه الوفية، ومع هذا لم يشفعْ لك وفاؤك حين أهداك خيانتَه القاسيةَ.

العفْوُ مع الخيانة ظلمٌ، والتسامحُ معه كافٍ لتحطيمِ رؤوسِ العدل.

لا تجعلي حبَّك يمنحه عفوًا كاذبًا؛ لأننا بعد خروجِنا من أيةِ مأساةٍ نصبحُ غيرَ مؤهلين للعفوِ، وإنما نغدو أكثرَ قدرةً على تصنعِ الغفرانِ، لا تغفري له قط، تذكري ابنتَك المريضة، تذكري فراغَك الروحي وحياتَك البائسة، لا تغفري شقاءَ جسدِك المحروم، لن يتركك أرملةً بل عانسًا وحيدةً بلا أمل بلا شيء سوى الذكريات السوداء، أنت أنثاه المحرومةَ التي سلبها السعادةَ والاحترامَ أمامَ الجميعِ، حتى مرآتك ترى من عينيك التعيستين خيانتَه غيرَ المبررةِ، وتذكري يا سيدتي أن الرجالَ يحيون بالنساءِ، وامرأةٌ واحدةٌ لا ترضيهم حتى وإن كانت من الحور، خذي الحكمةَ من أفواه المعذبين، دائما يسبِّحون بك في عمقِ المجهول، ويتركونك وحيدةَ

الضياعِ والفشلِ.

لن أوقع مرسالي بمخلصتِك أو محبوبتِك؛ لأن هذا لن يكونَ إلا مجاملةً غيرَ طيبةٍ من امرأةٍ سيئةٍ لأخرى تعيسةٍ، أعذري سوءَ أدبي؛ فقد توفت والدتي قبل أن تعلمَّني شيئًا منه.

البائسة.

عزيزتي البائسة:

البارحة وقبيل وصولِ خطابك الصادم توفى زوجي المسكين، وقبل أن أقرأَ ما كنت على درايةٍ بأن قسوةَ الحزنِ تميتُ الرحمةَ إلى هذا الحد!

لعل في الأيام المقبلةِ حدثًا يبدلُ من حياتك الأكثر بشاعة على الإطلاق لما هو أكثر عفةً ونقاءً.

سيدتي العزيزة:

الأكثر بشاعةٍ هي حياةُ من يتصنعُ الغفرانَ وبين ضلوعِه نارٌ لا تهدأ، ليتك تتعلمين الحياةَ، وتعلنين الغضبَ، أعرفُ أن حياتي تعيسةٌ ولكن ليس إلى حدِ التظاهرِ بنقيضِ عواطفي؛ فأنا وعلى الرغم من سوءِ حالي ما أزالُ أملكُ حريتي، فهل أنت كذلك؟ وأخيرًا أنا حقًّا لا أتذكرُ زوجَك العزيز.

لقد انتهت الخطابات المتبادلة بين أمي والبائسة؛ لسوءِ حالةِ والدتي النفسية، تُرى كيف تتغلبُ الرحمةُ على أنيابِ الخطيئة، أمي المسكينة واللقيطة البائسة أي منهما أكثر احتياجًا للغفران! هل مع الغفرانِ هذا

أفضلُ أم من العدل ألا نغفرَ؟ وأي السبيلين أصدقُ للواقع؟

بعد عدةِ أشهر وجدت خطاباتِ تلك اللقيطةِ مع نسوةِ القريةِ كلِّها، كانت تراسل كافةَ نساءِ القرية، تطلبُ منهن عدمَ الرحمةِ والغفرانِ من الرجال.

و كانت خاتمةُ كلِّ مرسالٍ منها إليهن:

(لو لم تسامحْ النسوةُ؛ لكفَّ الرجالُ عن الخطيئةِ، هذبوهم بلا غفران؛ فلو كلُّ رجلٍ يعلمُ مصيرَه من خيانته ما وقع فيها وإن عصمَ الرجلُ نفسَه؛ ما أصبح للعاهرات عملٌ. أنتن تحتقرن الأكثرَ ضعفًا والأقلَّ قدرةً على المواجهة، بينما تبجلن الشيطانَ؛ لأنه يخدعكن في كل مرةٍ بحيلةٍ جديدة، ويدخلكنَّ في تجارب السوء، لأنه الأقوى بذكائِه وبقوةِ حجتِه عليكن، ولأنه يجري في نفوسِكُن البغية أكثر من جريانِ الرحمة والغفران. ليت كلَّ واحدةٍ منكن تكفُّ عن التظاهرِ بالعفو. كلُّ امرأةٍ منكن لن تنالَ مودةَ الرب بالغفران الأحمق، هل سألت أيٌّ منكن عن الفرقِ بين الغفران والتساهل حدَّ الحمق؟

الغفرانُ الحقيقيُّ حين تتوقفن عن رجمي وتبتسمُ عيونُكن حين تتلاقى بعينّي لا أن تحتقروني كما الحثالة، أنا مثلُكُنَّ تمامًا حتى في الخطيئة. فلو كانت خطيتي العوزَ العظيمَ؛ فكذلك خطيتُكن في الغفرانِ المقيت. الفارقُ الوحيدُ يكمنُ في كوني أكثر صدقًا، وأنتن أكثرُ تظاهرًا بالصدق، الخطيئة ليست حوبةَ أصحابِ العوزِ والحاجةِ من العاهراتِ ممن تدفعهن مذلةُ الجوعِ والفقرِ لبيعِ أعراضِهن في بيوتِ المتعةِ ولكنها جرمُ أصحابِ النفوذِ والقدرةِ الذين يجيدون استغلالَ حاجةِ البؤساء من هؤلاء النسوةِ اللاتي

حكمت عليهن قساوةُ الحالِ وشدتُه الخانقة لسلك ذاك السبيلِ الواعرِ جدا بالخوفِ والضياعِ، ليتكن تعرفْنَ كم هو احتقار الذاتِ مقرف!

المرسال الأخير:

حين تهبُّ عليكن رياحُ المحبةِ؛ فهذا نذيرُ خطرٍ يدقُّ فوقَ رؤوسِكن، فلو كان للحبِّ مكانٌ؛ ما كان زوجُ كلِّ واحدةٍ منكن قد سبق ودنس الوفاءَ بخيانتِه المقززة. لا تحبوهم فقد كانت كلُّ واحدةٍ منكن أنثى له بحب كاملٍ وصدقٍ تام ومع كونك أنت أنثاه المقدسة؛ إلا أنه ما رحمك أبدًا من ذلِّ خيانتِه.

عزيزتكم البائسة

و مع كلِّ النصائحِ الغاليةِ، إلا أن النسوةَ فضلن التسامحَ الأحمقَ على عدمِ الغفرانِ النبيلِ.

والمرأةُ اللقيطةُ لا تزالُ تراسلُ نساءً أخريات في قرىً ومدنٍ أخرى لا يُسْمَعُ لها حسيس، ربما نسمعُ يومًا ما عن مدينةٍ رحلَ عنها الرجالُ.

ولأنهم لا يشعرون، ينغزون روحك بما ليس فيك. ولأنك تصبر وتمرر كل مكروه، ظنوا أن إيذاء روحك أمر مشروع. هنيئًا لهم خطية ظنونهم وهنيئا لك مثوبة طهارتك.

يذكر برتراند راسل:
في يوم شاهدت ولدا متوسط الحجم يضرب ولدا أصغر
منه فجادلته فقال:
"الأولاد الكبار يضربونني فأنا أضرب الأولاد الأصغر
مني؛ هذا عدل"
في هذه الكلمات لخص الطفل تاريخ الإنسانية.

(الصحون المحطمة)

لا يجب عليك أن تنسى من جعلك تغرد المناجاة الحزينة. هؤلاء التعساء أشفق عليهم كثيرًا، الذين يتغذون على ضعف المنكسرين، وينتشون بفشلهم إنهم حمقى فلا تقربوهم أبدًا.. عندما نبلغ ذروة الشعور بالحاجة علينا أن نقتل الخوف الطاعن فينا. إما أن نقتل الخوف أو أن يقتلنا هو.. يتغذى الخوف على الذكريات المؤلمة والتي تنمو بتلاحق الأيام.. وتعاقب الأحداث.

مرت سنوات، عشرة أعوام تقريبًا، ظننت أنني لن أخطوها من جديد بيننا، أقف الآن في الباحة الأمامية لمدرستي القديمة أفرك جبيني الأسمر بيدي وأستعيد ذكريات طفولتي.

كنت طفلة ذات يوم. طفلة لم تكمل الثمانية أعوام بعد، بملامح شرقية هادئة وبسيطة، قامتي قصيرة، وجسدي هزيل ويابس، وعينّي كاحلة السواد، وشعري البني المجعد استراح على طول ظهري. أذكر جيدًا أنني لم أحب مدرستي يومًا. مدرستي الصغيرة الممتلئة بالصحون المحطمة، كل شخص بها هو في الأساس صحن بائس، محطم. لم أكن أنتوي العودة إليها مرة أخرى ولكن لتعثر حظي أرسلت للتدريب بها. والآن أنا مبعوثة للتدريس في الجحيم.

لعلك تجد هذا المكان قد تعبق بروائح متداخلة تثير في نفسك شهوة الغضب، ملء جوانبه وأرضه مزدحم بالطاقات السلبية والذكريات التي يئس منها أصحابها وبحظوظهم المتعثرة، وأحلامهم المضطربة والتي دفعت كل واحد منهم لممارسة هوسه النفسي علينا كصغار أبرياء، بلا حيلة لنا أو ذنب.

ربما أدق وصف لهذا المكان أنه غرفة مظلمة متكدسة بالصحون المحطمة كلما حاولت إصلاح طرف تهشم طرفه الآخر وإن حاولت ألا تقتحم عقدهم لجرحك تهشمهم النفسي ولأذاك هوسهم المريض.

أسير بخطوات متثاقلة في أروقة المدرسة، أعبر ممرا طويلا يفصل بين الصحن الأمامي للمدرسة وبين غرفة المعلمين وعلى جانبي الممر اصطفت الحجر التعليمية الخاصة بالتلاميذ، رصفت أرضية الممر بالرخام، أما الجدران فهي من الجرانيت. بينما يتدلى من الأسقف بعض القناديل البالية التي تجعل الإضاءة خافتة وإن كان هناك كوة تسمح لبعض أشعة النهار أن تتسرب إلى عمق الممر.

حينما تبلغ أقصى الممر تصل إلى حجرة المعلمين، أدخل على استحياء مفرط، فتخلب بي العيون وتفغر الأفواه، لحظات من الصمت المحرج.

تقترب إحداهن بنظرات دقيقة وفاحصة لهيئتي وملامحي، إنها مدام حسنية، معلمة اللغة العربية أتذكرها جيدًا، أذكر كيف كانت تعذبني، كيف كانت لا تكل ولا تمل من ضرب أي من الصغار، تارة بيدها وتارة بالعصا.

لعل ابنتها "حنان" حملت النصيب الأكبر من الهلاك الجسدي والنفسي. لم يكن لها من الأبناء سواها، توفى والد الصغيرة وهي لا تزال في رحم أمها، جنين بائس، لا يعلم أن القدر أهداه أسوأ أم في الوجود. أم تعاملها وكأنها نذير شؤم، تعاقبها على موت أبيها!!

هذه الأرملة السوداء صحن مهشم من كل الزوايا تجرحك بعلة أو بدون. علك تعرفها إذا أبصرتها من هيئتها المحطمة ووجهها العابس الذي تجاورت به الشقوق وتناثرت فيه الندبات، ربما تعرفها من عينيها الخاليتين من الأمل والمتواريتين خلف التجاعيد. ومن بعض شعيراتها البيضاء التي تدلت من الحجاب.

سمعتها ذات مرة وهي تنعي نصيبها القليل، بأن الموت اختار زوجها وترك أزواج الأخريات، تمنت بصوت متحشرج أن تموت ابنتها الوحيدة ويعود زوجها.

تلك المحطمة أصابتني بأذى جسدي، ومع ذلك أعرف أن المجتمع لا يرحم، ينهش المطلقات والأرامل بلا رحمة، بلا شفقة، يوجع كل الضعفاء. هو لا يحاسب المجرم القوي بل يعاقب قليل الحيلة وضعيف السند. لذا من صميم قلبي أشفق عليها.

لامست المرأة الأربعينية كتفي وهي تقول: ربما أنت المتدربة الجديدة أليس كذلك؟

قلت بصوت خفيض: بلى...

ابتعدت بضع خطوات ثم أكلمت: هل كنتِ إحدى طالبات المدرسة؟

تلجلجت قليلًا ثم أومأت بنبرة خافتة، وربما خائفة: لا، لم أدرس هنا أبدًا، بل درست في قرية مجاورة.

تقول وهي تعيد لحجابها الفوضاوي شيئًا من اتزانه الذي فرط: لا بأس، سأعرفك على الجميع أولهم أنا، مدام حسنية، ولكن الكل هنا يناديني ماما. ولك حرية الاختيار في مناداتي.

قالت ذلك ثم أشارت بسبابتها نحو أخرى وقالت: تلك مدام نائلة، معلمة الرياضيات.

أتذكر هذه المرأة في نفسي، استرجع كيف كان هذا الصحن البائس يؤذيني. حينها كانت امرأة ثلاثينية، ببشرة قمحية مائلة للسمرة وجسد يميل إلى النحافة ولها شعر أشعث، وعيون جاحظة بالكاد تخترق الناظر إليها تثير في نفسك الفزع. على أية حال كنت وما زلت أكره مادة الرياضيات، ولا أرى عيبا في هذا فلكل عقل علم يتعلمه سريعا أو ينفر منه سريعا بلا عجب جبلنا على هذا. إلا أنها كانت فظة إلى الحد الذي يجعلها تغفل عن ذلك فراحت تسخر مني بشكل فج، تسخر من حذائي القديم وجوربي الممتلئ بالثقوب من كثرة العثرات، ومن جسدي الهزيل المكتنز، ومن سمرة بشرتي. عودت الجميع التقليل مني وعدم احترامي.. جعلتهم ينعتوني بالمسخ القصير.

بيد أنها كانت صاحبة هواية عجيبة ومزعجة. أحبت ممارستها علي أنا تحديدًا. كانت تعشق جمع الحشرات خصوصًا الصراصير والفراشات. وكنت وما زلت أكره كل الحشرات وتثير اشمئزازي جدًّا بينما اعتادت أن تعاقبني من خلال عقدتها النفسية، تضع لي كل يوم حشرة في شعري أو

ملابسي وعلي أن أقف ساعة كاملة بلا حركة مهما فعلت بي تلك الحشرة اللعينة المقززة.

أكرهها كثيرًا، ما زلت أسمع صوت ضحكاتها الماجنة. وما زلت أراها بأحلامي المزعجة.. وكثيرا أتساءل ما المتعة في ذلك؟ ما الذي يدفعها لفعلٍ معتوه كهذا على بائسة مثلي؟ ما المتعة في التغذي على أوجاع الآخرين؟ تلك المريضة المقرفة، حطمت أشياء في نفسي.

قالت حسنية كلاما كثيرا لم التفت لأي منه، فقد كنت غارقة في ذكرياتي. عدت من شرودي إليها فأجدها تتجه نحو معلم التاريخ، أستاذ عنايت.

أتذكره بصورة مذبذبة ومهزوزة، كان رجلا أكرش ذا جتة عملاقة وسمينة، مملوءة بالشحم.. أما عن ملامحه فكانت سمجة إلى أبعد حد، له جبهة بارزة، قاطبة. وعينان غائرتان، وأذنان طويلتان كالحمار، وشارب رمادي غليظ. وفم إذا فتحه تناثر منه سيل من الألفاظ النابية مصحوب بكثير من الرزاز.. وصحيح أنه كان معلمًا لمادة التاريخ إلا أنه كان في الوقت ذاته فقيه المدرسة مسؤول الفتوى بها. ما يحله حلالا وما يمنعه حرامًا ولا يجرؤ أحد على مناقشته في أي من فتواه، وبالطبع كان يقف لنا على الساقطة واللاقطة. ويتدخل في كل ما لا يعنيه وكيف لا وهو مبعوث الرب لهدايتنا من الضلال؟!

تكفل هذا الصحن البائس بتحطيم شيئًا من إيماني. كان كثير الثرثرة بحماقات عديدة منها تحريم عمل النسوة، وثورية بن لادن وإيمانه الفج

بقيمة الخلافة المندثرة والعديد والعديد من الأفكار المشوهة التي كانت تطفح علينا بلا ذنب.

اتجهت حسنية أخيرًا إلي أفضل صحن لم يستحق التحطيم الذي نال منه. أستاذة نجوى، معلمة اللغة الإنجليزية، كانت مثالا لا بأس به في الجمال والأناقة، كانت ذات قوام ممشوق وبشرة بيضاء كالحة وعيون عسلية واسعة يحدها سواد الكحل ولها شفاه مكتنزة، وشعر أسود قصير. والأفضل من كل هذا كان لها قلب كبير ملء الدنيا.

العديد من الطالبات كن يتخذن بنصحها في أغلب أمورهن وكانت لهن دومًا ناصحة أمينة. أعني أنها كانت العاقلة الوحيدة في هذا الصرح الممتلئ بالمهابيل، ولكن على أية حال تحطمت في النهاية، فمن جاور المحطمين تحطم مثلهم. ولأن الله لا يختبر غير الأبرار فقد وقعت المسكينة وطأة رجل أحمق، نصب لها فخا لعينا، وحينها كانت لا تزال نقية بريئة، لم تعكرها بعد قساوة التجربة فقد وثقت به حد السفه. ولأن الثقة المفرطة أسوأ أنواع التجربة فإنها تحطمت كليا.. وعلى أية حال فالشر حي لا يموت، ووحدهم الأبرار لا يهنئون.

أخيرًا.. صمتت حسنية وانتظروا أن أقول شيئًا ولكني شعرت بهواء ملوث يخترق روحي وبدأت تتشبث بي أفكار ظلامية وكان هناك دخان أسود يحيط بي. بيد أن صدري بدأ ينغزني. شيئًا فشيئًا أنفاسي تضيق وكأن الحجرة خالية تمامًا من الأكسجين انتابني دوار، وبدأت صورهم من حولي تتذبذب وصوتهم يبتعد، ولكني حاولت أن أتماسك، قاومت وسقطت ولكن

قاومت من جديد تجمعوا حولي طلبت منهم أن يبتعدوا وأنني سأتحسن تدريجيًّا. قاومت شعوري الحاد بالغثيان وتحركت مترنحة متجهة نحو الخروج من غرفتهم الهالكة، سرت بخطوات متثاقلة في الممر الخافت من جديد وكنت كلما ابتعدت استنشقت الهواء النقي حتى وصلت للبوابة وخرجت أخيرًا فأخذت شهيقا كبيرا وأطلقت زفيرا كبيرا وكأنني تحررت من ذكرياتي الأليمة معهم. وأيقنت أن أسوأ عقاب قد ينالوه أن يبقى كل واحد منهم على ما هم عليه. صحنًا محطمًا. فهذا الجمع المهول من الصحون المحطمة هو أشبه بمصحة نفسية ممتلئة بطاقات شريرة وظلال سوداء رهيبة، لا يتحمله أصحاب الأرواح الطاهرة.

ألقيت عليهم نظرتي الأخيرة وقلت في نفسي دمتم صحونا محطم.

دع الأرواح ترشدك دون أن تسمح لها بأن تخطفك.

إي تي ستيفنز

(التعزيمة)

كان الوقت باكرًا، إنه الفجر في البزوغ، وكنت أنا على أهبة الاستعداد للرحيل بعدما أيقنت ألا معنى من مجاورتي لهؤلاء، بإيجاز مفرط (نفد صبري).

فإذا استيقظت ذات يوم وأدركت أن صبرك قد تخلى عنك فلا عليك شيء سوى الرحيل، والله وحده عليم بأي السبل خير لك، فوحده يعلم ما يختلج في صدرك ويعبث بصفوك، وهو يبصر هذا الفراغ الذي اجتاح قلبك.

دقات الساعة تعصف برأسي، تدق في عقلي كأجراس الكنائس، منذ تلك الليلة المشؤومة كل شيء تغير أو بالأحرى كل شيء تعكر، خطايا غير مبررة. شظايا الشر تناثرت في أرواحنا. أصبح كل واحد منا شخصا آخر لا تعرفه الرحمة. ولا تدركه العناية. النوم، يرفض أن يجيء. والراحة، ترفض أن تدركني. فكيف الخلاص من ظني؟ وكيف السبيل إلى منفاي؟!

إن تعكر ضميرك بالحوبة يعني أن تعيش على الأعراف، لا أنت تدرك نعيم الموتى، ولا أنت في شقاء الأحياء.

ثلاثة أعوام وضميري مرآتي المهشمة، وعقلي مؤرقي لا يهدأ أو يكل عن لومي، ولكنها لم تكن حوبتي وحدي وفي الأساس لم تكن الحماقة حماقتي. ومع ذلك ربما كان علي أن أكتب لهم لأودعهم وخاصة أمي المسكينة، التي جف قلبها وبعد فراق (رقية) لم تعد تستهوي الحياة، ولكن لم يطاوعني

قلبي؛ إذ أن فعلهم الجائر أوجب عليهم العذابات المريرة، إن رحمة الرب لن تشملهم أبدًا. وبلا شك ستفارقهم عدن دائمًا وأبدًا.

سوف أقص عليكم وأوكل الأمر لكم.

منذ عدة سنوات كانت أسرتي تشكو مرارة العوز والحاجة للأقربين والغرباء، لم نترك بابا إلا طرقناه من قساوة الفقر وشدته. بيد أن مرض أختي الكبرى لم يبقِ لنا شيئا بل قضى على الأخضر واليابس.

وفي تلك الأثناء المفعمة بالحاجة توفي جدي والد أمي وترك لها بيتا قديما لم يدوسه إنسان. منذ قرن كامل توارثته الأجيال، دون أن يجرؤ أحدهم على أن يسكنه أو يدخله؛ فقد كثرت الأقاويل ونسجت القصص الخرافية حوله وما أكثر الخرافات لدى حاراتنا.

فأخذ البعض يقول: "أنه كان لدجال اشتهر بشعوذته وأعماله السفلية، وانتهى به المطاف بأن قتل على يد مجهول، سمعت أيضًا أنه كان أحد مريدينه الأقربين".

والبعض الآخر أخذ يردد أنه كان لامرأة عملت في الدعارة وأعمال أخرى مشينة، جعلت ساكني الحارة يبغضونها فاجتمعوا على إحراقها.

قصص، وحكايات، ربما حدثت وربما ملفقة.

على أي حال كان لوالدي صديق يدعى (عز الهمام)، رجل لا يعرف الخير قلبه، والرحمة هجرته منذ أن كان صبيًّا. ورث عن والده مهنة الدجل واشتغل بها حتى اشتعل رأسه بالمشيب أي أنه رجل شيخه الشيطان.

طلب والدي مني أن أذهب إلى (عز) وأحضره معي ليفتيني في شأن البيت ويتحقق بنفسه عما إذا كان مسكونًا حقًّا أم أنها مجرد خرافات تداولها الرعاع، وفعلت.

كان الطريق إليه بعيدًا وشاقًّا، تكدست الطرقات بالمارة والسيارات، واكتسحت السحب الدخانية الأفق الملبد بالغيوم واجتاح صدري الدخان الملوث، استمرت العربة التي تقلني في الدخول من نفق لآخر ومن حارة لأخرى.

يسكن الرجل في عزبة الفسطاط، هذا الحي الذي كان جميلا أصبح فقيرا ومعدما، رائحة العفونة تفوح من ممراته، التي تشوهت بالطفح السكاني وبأكوام القمامة المترامية على جانبي الطريق، في أحد الأزقة يسكن الرجل.

اقتربت من بيته وقرعت الباب، كان بابًا قديمًا متآكلا من جانبيه.

انتظرت لحظات ثم أعدت طرقه من جديد، فتح الباب ببطء مصدرًا صريرًا عاليا ومزعجا.

ظهرت امرأة خمسينية، قالت المرأة في شيء من الغلظة:

-ماذا تريد؟

قلت:

- أبغي الرجل، أريد عز الهمام.

ضحكت بسخرية ثم أومأت بحاجبيها: معك نقود إذن؟!

ترددت قليلا ثم أجبت: نعم، معي بعض منها.

تزحزحت المرأة من المدخل وأشارت لي بالدخول.. ودبت أقدامي البيت بحذر مفرط، البيت قديم وأثاثه غير منظم، ونوافذه مهدمة وجدرانه ملطخة بالاتساخ. طاقة غير طيبة تسكن هذا البيت الأغبر.

انتظرت قرابة ساعة لم أبرح موضعي، خلال هذا الوقت كنت أراقب باب حجرته، الذي صدرت منه أصوات مبهمة ومتداخلة، سمعت أيضًا صوتا لصرخات مكتومة متقطعة يتبعها صوت تأوه خفيض، كان الرعب يسري بين أوصالي فهممت بالرحيل ولكن في تلك اللحظة بالذات فتح الباب، وكأنه كان يراني من حيث لا أراه. على إثر ذلك ارتعدت فرائصي وثبت بلا حراك.

خرج الرجل، ونظر لي بعينين غائرتين، ملامحه كانت متجهمة وكأنه استفاق لتو من كابوس بشع مقزز، لباسه رث، مهلهل، تفوح منه روائح نتنة.

اقترب مني ووضع قبضته اليسرى على كتفي وهمس: هل ما زالت أختك الصغيرة عذراء؟

قلت في تعجب: وما شأنك بهذا؟!

أعاد الرجل ترديد جملته المشؤومة ، هل ما زالت رقية عذراء؟

قلت بصوت مرتعش: نعم.

أجاب: حسنًا، لنذهب إلي بيت جدك إذن.

رحلنا سويا. طوال الطريق لم ينبس أي منا ببنت شفة. بينما أفكاري كانت تتراقص كالأفعوان في رأسي، وظنون الشر أخذت تذهب وتجيء.

ظلت السيارة تحملنا من مكان لآخر ومن طريق مزدحم لمفترق طرق مختنق بالغبار ومتكدس بالمارة، حتى وصلنا إلي منطقة البساتين، حيث يوجد بيت جدي، إرث أمي اللعين.

توقفت السيارة وانطلقنا خارجين منها، توجهت بالرجل إلي البيت ودخلنا.

جلس الشيخ الأغبر في الردهة على مصطبة رخامية وطلب من أبي أن نصطف جميعًا بجوار بعضنا البعض، فوقف والدي بجوار أمي تليهم أختي الكبيرة خديجة، ثم رقية، ثم أنا (عمار).

قال الرجل: اقترب يا عمار.

اقتربت على حذر.

بينما استطرد هو: أريدك أن تهب لي حمامتك العجوز.

فزعت لقوله لعلمي أن أمثاله قد يستعملون هذه الأشياء في عمل السحر.

قلت: ولكن هذه حمامتي الوديعة لا يمكن أن تكون الضحية، اختر شيئًا آخر وهو لك.

أخذ يفكر مليًّا ثم قال: أي شيء أختاره يكون لي؟

- أجل، هو لك.

تنهد ثم أكمل: لا بأس، فعلى أي حال الاختيار ليس لي بل لهم حسبي رضاهم وكف.

- من هم؟

قالها أبي.

نطقت أمي: الأسياد ومن غيرهم؟!

- صه، قالها الرجل وكأنه يستمع لصوت خفي.

سكت مليا ثم أخذ يتخبط كالمسوس ويتمتم بطلاسم وعبارات مبهمة. خلال هذه الأثناء كانت يده تشير نحو أختي رقية.

مر الوقت وكأنه سنوات من القلق الطويل، سكن الرجل فجأة وثبت مقلتيه نحو رقية ثم ردد: يريدها، يريدها، يريدها، يريدها، يريدها، يريدها.

مرارا وتكرارا أعاد كلمته: يريدها، يريدها، (الخناس) يريدها زوجة له.

يتمتم بذلك بينما تسقط رقية مغشيًّا عليها، نهرع إليها فيصيح بنا:

- اتركوها، اتركوها؛ هي في معيته الآن.

صمت وكأنه ينصت لشيء ما ثم استرسل، بني هذا البيت على مقبرة قديمة، تحتوي على هبة عظيمة وكنز لا يبور ويقول شمهروس (ملك من الجان) أنه لكم ولكن.

قال ذلك وصمت من جديد ولكن هذه المرة تحرك نحو أختي وجلس بجوارها ووضع يده اليسرى على رأسها واليمنى على رسغها ثم أكمل:

- لن يفتح الكنز إلا على فتاة عذراء من نسل هذه الأسرة، وإن فتح على أخرى فهو يؤول إلى عائلة الأخرى.

سكت الرجل عن بغائه وعم السكون كل شيء. هو لم يكن صمت بقدر كونه صراعا نفسيا لكل واحد منا. أيعقل أن تكون رقية الضحية!! أيعقل أن يبارك والداي هذا العمل غير الرحيم؟ ولكن هل من المنطق أيضًا أن نترك الكنز العظيم ونحن نشكو مرارة العوز والحاجة؟ آه، يا إلهي أي السبيلين خير؟

ترنح والدي كالسكير وأشعل عقب سيجارته التي أضفت على هيئته بؤسا على بؤسه.

بينما توجهت أمي نحو رقية وجلست قرفصاء بلا حيلة منتظرة قرار والدي.

مع كل هذا الصمت الذي تعارك فيه كل من الضمير والمنطق كان هناك صوت خفي يهمس فينا بأنه لا سبيل للعودة أيًا كان خيارنا.

تشق خديجة السكون بسيف كلامها إذ تقول: أرى أن نتمم بالموافقة على ما قاله شيخنا (عز الهمام).

قالت ذلك وتوجهت بعينيها نحو والداي وكأنها تتكفل بالقرار نيابة عنهما، ربما رأت أن كليهما بحالة مزرية تعيقهما عن اتخاذ أي قرار.

لطمت أمي فخذها، ثم نطقت بنبرة متحشرجة: ما الذي أصابك يا خديجة أيعقل ما تقولين؟

- ولم لا؟، قالتها خديجة بمكر خبيث وكأنها تعرف أن وقع كلماتها قد أصاب الهدف.

تفوه أبي بكلام مرتبك أشبه بهذي، الآن والداي تحولا من عاقلين إلى طفلين لا حيلة لهما فكان علي أن أتدخل، أن أقول، أن أفعل شيئًا. وأوشكت أن أنطلق بهم كمدفع أهوج، ولكنني لوذت أخيرا بالصمت حين نظرت عباءة أمي المرقعة وخرقة رأسها المتهالكة، وجاكيت أبي الذي تمزق وتهدمت خيوطه. أوشكت أن أتدخل مرة أخرى ولكني امتنعت حين بصرت ذراعي أختي المشلولتين. شعرت بالعجز وتمنيت الموت في نفسي أو وقوع معجزة ولكن لا أمل لمن هو في وضعي ولا عزاء أو رثاء يشفع لي.

تحركنا جميعا بخيبة نحو هلاكنا. وكان الشيطان شاهدًا علينا. ومع هذا أيقنت أن لا شيطان سوانا ولا شر أسوأ من شر الفقر، ولا قهر يعلو على قهر الحاجة.

أعاد الشيخ سؤاله على والداي ليبارك كلاهما بالموافقة؛ فأومأ والدي برأسه الحاني وأشارت أمي بعينيها التعيستان بالإيجاب، ثم نظر إلي فتشبثت عيني بالفراغ وجاوبته بتنهيدة طويت بها قلة حيلتي، بينما أخذ هو في تنفيذ أعماله السفلية.

رسم على الأرض بالطبشور الأبيض دائرة كبيرة بداخلها نجمة داود ثم حمل أختي ووضعها بمنتصف الدائرة، ربط حول عنقها قلادة مزركشة تسمى قلادة الفودو، ثم وضع زهور البنفسج حول جسدها الهزيل، وقص خصلة من شعرها الأصهب، وما لبث أن بعثره في الهواء، وأخيرًا أوقد الشموع وظل يردد:

- (الخناس، الخناس، الخناس، الخناس) إنها هبة لك، عروسك البتول، لم يمسسها إنس، ولم يعبث بها جان، خالصة لك، ليتقدس اسمك في كل مكان.

صمت هنيهة وكأنه يأخذ الرد على صلاته، ثم أكمل:

- وليغموش ما طلب. وليغموش ما طلب. بحق خدامك. بحق (داسم، ثبر، مطرش، دهار، بحق لاقيس، لاقيس، لاقيس) احضروا يا ملوك الجان، بحق ح ح ح ح. بحق طلششككوش. أجيب مطلبي، رد إلينا حاجتنا ها هي عطيتك المقدسة، ضحيتك المقبولة. بحق ن ص ل بحق { فاج ش خا ح زيا با سما يا ود ود} احضروا يا خدام هذا الطلسم { فاج ش خا ح

ز يا با سما يا ود ود} احضروا يا خدام هذا الطلسم، انطقوا بلسانها، تلبسوا جسدها إنه لا يزال طاهرا، أملس.

وفجأة رمقني بعينيه الشبيهة بالظلام الدامس وقال بصوت أجش: اعطني حمامتك

سرت قشعريرة في جسدي وعلى عجالة أمسكت بحمامتي العجوز ووهبته إياها.

أخذها، ونحرها، لم تقاوم البريئة. استسلمت كرقية، أسقط قطرات الدماء على جسد أختي ثم أخذ يرسم صليبا معقوفا على جبينها الأبيض الرقيق.

ومن جديد أعاد ترديد طلاسمه. بحق (ج ج ج ع ع ع ع وو ول ل ع ع) أجب وتوكل يا خناس انطق على لسانها..

في تلك اللحظة بالذات تأوهت رقية تأوه مر، ونطق لسانها بصوت مختنق وكأنه صوت لأحدٍ غيرها، وقال الصوت اللعين الذي تلبس لسان رقية:

- أسفل المرحاض، ترقد عطيتكم الخالدة، احفروا، واحذروا تدنيس عهدكم مع الخناس.

همس الرجل، إنه آت آت، لأخذ عطيته، احذروا خنث عهده إنه قادر، قادر.

وأخيرًا انتهت طقوسه الشيطانية، وسكت (عز الهمام) وسكت معه ضجيجنا النفسي.

بعد رحيله كل شيء تغير أو بالأحرى كل شيء تعكر، لم يعد شيء كما كان في السابق، رقية لم تعد طفلتي الحسناء، بل تبدلت ملامحها كعجوز بغيض، جسدها الناعم تغير إلى جسد يابس كأغصان الشجر العتيق. شعرها الأملس صار خشنا مجعدا، عيناها البريئتان أصبحت حادة كعين الصقر، ابتسامتها الرقيقة بهتت إلى الأبد، بيد أنها كانت تفقد الوعي بالأيام وتعود إلينا بلا إدراك، جسد هامد، كخرقة بلا روح. كيان غير طيب يسكن جسد أختي البريئة..

في صباح اليوم التالي للقائنا بالشيخ، أحضرت الحفارين، وبالفعل وجدنا أسفل المرحاض على عمق غائر ممرا قصيرا في نهايته قبر مملوء بالذهب والمجوهرات المثقلة بالأحجار النفيسة.

ومن تلك اللحظة التي كانت بمثابة مفترق طرق، تمرد كل منا على الفقر وأصبحنا أغنياء، ضل الفقر سبيله إلينا، ولكننا سلكنا سبيلا واعرا يشبه الدوائر المفرغة للشرير (الخناس) والتي لا مخرج منها.

كل يوم كان حال رقية يزداد بؤسا على بؤس وألما على ألم حتى أن جفونها لم تعد تذوق النوم وكثر عليها الوجع حتى تمنيت لها الموت، بيد أن الأطباء نصحونا بالموت الرحيم فلا هي في شقاء الأحياء ولا هي في نعيم الموتى. معلقة على الأعراف.

وكذلك كان وضع أمي النفسي يزداد سوءا واتخذت من العقاقير المهدئة والمخدرة وسيلة لإدراك راحة محالة، حتى أدمنتها.

أما عن أبي فأصبح سكيرا، أهوج، لا يستفيق من الخمر ولا يمل لعب القمار.

وخديجة طاب مرضها.

ومرضت أنا بشقاوة الفكر وآلام الضمير..

استمرت معاناة رقية، قرابة عام حتى أدركتها المنية.

ماتت رقية، كانت ملائكة الموت رحيمة عليها، القبر بلا أدنى شك أكثر دفئا من جفاء بعض البشر.

والآن أنا ذاهب بلا عودة بلا أمل في الرجوع، تارك وراء ظهري ظلال أسرة حطمها الخناس، أسرة لم تعد تستحق الخلاص..

ينعق الغراب فوق رؤوسنا في طليعة كل نهار ،
لا يحمل نذير شؤم ليس أكثر من كونه صوتا حزينا ،
يسكن الأفق. وما ذنبه إذا كان لونه القدري يحمل
صدمة الموت اللعين !

(الغراب)

سقط الظلام ليعانق الأفق الكئيب، ضوء بعيد يمنح المارة قدرا من الرؤية الخافتة، كم كرهت السير في ذاك الدرب الموحل بالقذارة، حتى وريقات الأشجار المترامية على جانبي الممر لا تترك أثرا طيبا في روحي؛ لما في تلك الأوراق من صرخة لموت مكتوم لا أمل له من بعث جديد.

كلما أسرعت من خطى أقدامي غاص كاحلي البائس في الوحل.

ليست مأساتي كاحلي ولكنما حذائي اليتيم؛ فإذا فقدته ما لي من حذاء غيره.

لا يزال الغراب ينعق وينثر قصيدته البائسة بين الناس، أوجدت يوما غرابا وحيدا؟

نعم، هو دوما غريبا في سربه، وحيدا في حزنه، كذلك أنا لا أكف عن النواح الصامت والرغبة في البقاء دون أحد هكذا قالت أمي، أي قبل أن ترحل وتتركني دون حنانها، رحلت إلى سراب لا أدركه، يوما ما نشيب ونعرف معنى أن يكون الموت على مقربة منا. ندرك أنفاسه اللاهثة وراء أحلامنا، تسمعه في كل مكان وتراه ببصيرتك.

لا أسوأ من أن تكون فارغا من كل شيء إلا من ذكريات توقظ فيك الأرق.

ها هو ذا ينعق من جديد، الشؤم في صوته سجية غير محدثة، لا يملك عليها سلطان التغير، أرفع عيني إلى السماء فأجد الرب لا يزال يلبسها السواد، أخفض الرأس المحبط لأسفل فيقع ناظري على كلب بائس على أثره تتردد في نفسي معاني الرحمة والعطف الغزير، تذهب وتجيء بين خواطري أسئلة تضم شيئا من الاستنكار المشوب بالغضب، فكيف أحنو عليه وأنا محروم الحنان والدفء!

يدنو مني، يلمس أجزاء جسدي اليابس، يتحسسه بحذر.

جسده الرطب أقل دنسا مني يا ليته يحتضنني كأم عاد ابنها الضائع، تمنيت أن يفعل ولكنه أبى ورحل، عدت من حيث أتيت، لأجمع أشلاء ذكرياتي المتناثرة. أنصت إلى صفير القطار، وأعد نفسي للركوب ولكن القطار يكمل رحلته دون أن يقف فهو لا يعبأ بركاب جدد لا يعنيه شأنهم في شيء، يبدو أن سائقه قد اكتفى بما لديه، أجثو لأرجو منه التوقف وأن ينظر في حالي لعله يستحق شيئا من تعاطفه وإنما لا تفلح معه توسلاتي فلا يقيم لها أدنى اعتبار.

هكذا أسير وحدي بلا رفيق بلا معين بلا واجهة حتى، فاليوم أنا طريد الزمان لا حياة لي سوى الشقاء والغربة.

ينعق الغراب فوق رأسي، يسير بمحازاتي ويرافقني..

شخص تشتاق له نفسك فجأة، اعلم أن الله
يُريدُ أن يفتح لك بابا للأُنس به..

ابن عطاء الله السكندري

(وداع بلا لقاء)

كانت الشمس رابضة في الأفق. بيد أن رياح الشتاء لا تهدأ، ومعطفي الأسود القصير لا يقي كثيرًا من لسعات البرد، إلا أن بعضا من أشعة الشمس القليلة كانت تمتد إلينا من النوافذ المفتوحة. أما المارة فكان بعضهم من عابري السبيل وقليل من الموظفين الكادحين، هؤلاء الشرفاء الذين يظهر عليهم علامات الكد والكفاح.

أما القطار فيعج بالازدحام والفوضى وبثرثرة الراكبين التي تشي بحالهم العبثي.. كعادة كل يوم، كان يبدو كل شيء هادئا أو هكذا خيل إلي؛ حتى تحشرجت عجلات القطار واخترقت روائح النرجس أنفاسي.

وحيئذ طفى وجهها كملاك ساحر، وصرت لا أدري أحقيقة أراها أم أنها مجرد حلم محرم لا يزال يداعب مخيلتي الهزيلة.

لسنوات أخذت أتساءل أيهم أكثر بؤسا الذي رحل أم الذي بقي أم الذي وقف على أعرافه لا هو معنا ولا وهو مفارقنا؟

لعل أسوأ شيء بالرحيل أنه لا يسمح بفرصة أخرى.. كنت أحسب أنني شفيت من ذكراها ومحوت أثارها من كياني وظننت أن كل شيء رحل وامتدت من ورائه ظلال النسيان. ولكنني وقعت في فخ الظنون الآثمة التي لا تعدو أكثر من كونها أثما.

ها هي تخترقني بروائح النرجس ويتخلل شذاها الماكر حواسي، تباغتني بحضورها الحي وكأن شيئا لم يمت أو بالحري وكأن الفراق لم يقع. وكأن

النسيان لم يكن.

منذ عدة أعوام كنت مراهقا، بقلب جامح لا يهدأ، كنت أعشق كل شيء بشغف لا أعرف الهوادة في أي من مشاعري كله بعنفوان، بقوة مفرطة. أكره بشدة وأحب بعنف. بإيجاز لا تعرفني الوسطية. وكذلك أكرهها، هكذا كنت مراهقا بقلب مفرط المشاعر.

أما هي فكانت على العكس من ذلك، هادئة جدا وراقية المزاج وربما لهذا تجاذبنا، فالاختلاف يخلق العشق ولكنه لا يولد حياة مستقرة هادئة بل مملوءة بالضجيج والصخب فلو كنت مغامرا فعليك بالعشق الحر، ألا وهو الحب المجنون لمن هو يختلف مع مزاجيتك وطبعك من هنا يأتي الحب الملتهب. بينما التفاهم والتناسب على العكس تماما يأتي منه الاستقرار والإخلاص والتناسق. وكذلك أيضا الروتينية والملل واللاحب واللامعنى. ومن هنا يخلق العبث. ولأنني رجل، والرجال يعشقون الاستقرار بقدر المغامرة بل ميلهم للثبات والتحدد والوضوح أكثر من ملاوعة الحب وإفراط العشق، ولأننا شرقيون ولأن الشرقي أضعف من أن ينهزم في معركة عشقية؛ فنتزوج على الأغلب من امرأة أخرى هي على الأرجح اختيار أحدهم، يشبه الأمر عملية القبول بالجامعة نظل نحلم بكليات القمة ونقع نهايتا بكليات الشعب وينتهي الحلم البريء على أوراق مكتب التنسيق.

وقفت هنيهة أتبع بنظرات لاهسة حلمي البعيد، المحرم على بعد أمتار قليلة وقفت حبيبتي السمراء ذات العيون البنية والشعر الكستنائي تبحث عن شيء ما، بينما يطفو بين المارة رجل أصلع بجثة عريضة يشدوها على حين غفلة منها فهي لا تزال متسمرة تتبع بعيونها شيئا ما ربما طفلا صغيرا

أو حلما آخر محرما، ولكن يسحبها الرجل سحبا ويغوصان بين المارة ويتلاشى كلاهما.

بينما وقفت بعض الشيء على أطلالنا أتذكر ما كان لنا سويًّا وكيف دمرته بالإفراط في الشك وختمته بالخذلان والرحيل.

هي حبيبتي المخلصة وأنا النذل غير الجدير بحبها.

وأخيرًا أيقنت إذا لم نكن جديرين بالعشق فسوف تصحبنا التعاسة دائما وأبدا ولا بد أن تتعكر أرواحنا بالهموم لو كنا سببا في أذية أحدهم لا بد أن ننال ما لنا من قسو.

تتحشرج عجلات القطار ليقف في محطتي وأهبط منه وأعود لانخرط في واقعي اليومي وأعود ألملم ما بقى لي من ذكريات في جعبة النسيان ألملمها حتى لا تنكشف أمام زوجتي التي تشبه مكتب التنسيق وكليات الشعب... فبعد حبيبتي كل النسوة لدي سيان لا يفرق معي قصرهن أو طولهن، جمالهن أو قبحهن كلهن لدي سيان فبعد حبيبتي لا أحبة في قلبي الذي بهت وصار لا يحمل سوى يأس الحاضر وهم المستقبل، وبقايا حلم مذبذب عن الحب أضاعته زوجة هي خيبة كبيرة في قلب كل رجل.

يقول الرومي : نحن غصون في شجرة واحدة نحن إلى أصلها
بينما يخبرنا التبريزي عندما أخبرته أن قلبي من طين، فسخر
مني لأن قلبه من حديد .
قريبا ستمطر سيزهر قلبي ويصدأ قلبه..

(ورد شان)

خذ قلبي المحموم بالوحدة، وأعطني نايًا لا يئن.. وهاك عشقي، وامنحني صبرًا لا يبور، وهب لي روحا دافئة لا تحن لمَن يعصبها، لمَن يؤذيها.. ما أقسى من الوحدة شيئًا! إذ ينهال علينا صقيع لا يعرف الدفء، وفوضى لا تعرف السكون، مَن مِنَّا يا ترى يتكفل بمداواة الجروح، تعاقب الزمن أم تعاقب الخيبات؟

لسنوات لم أكن أعرف أنَّ الصقيع الداخلي أكثر إيلامًا ووجعًا، وبعد عمر أيقنت أنَّ الأغبياء وحدهم هم من يجعلونك تُعاني الوحدة والخواء الروحي؛ فثقافة الاهتمام وتغذية المشاعر لا يتقنهما الحمقى والعابرون، فهؤلاء اتركهم يرحلون دون إحداث أدنى جعجعة في مشاعرك البريئة.. المعضلة في كونك دومًا تتعلق بالأشياء أكثر مما ينبغي، أو بالحري أسرع مما ينبغي، والأمور لا تحمل على هذا المنوال.

ولهذا كلما أتعثر، أسقط ولا أبالي بكل جراحي وعذاباتي الماضية وكأن الشقوق والنتوءات تندمل في قلبي بكل عشق جديد، وتتفتح بإخفاقي فيه مرة تلو الأخرى..

كان الليل لا يزال قائما، والأرق لا يزال حاضرا يفرض هيمنته على عقلي، والصقيع القارس يتسرب إلى جسدي ويطعن في مفاصلي، وأغطيتي الصوفية لا تكفي لتدفئة روحي.

أزيح غطائي الصوفي وأنهض من الفراش وأترك وراء ظهري نوما يجافيني.

الأرق والفراغ يدمران أي إنسان. لم أعد احتمل وحدتي الطويلة في هذه القرية المحمومة بالحكايات. خمسة أشهر أسكنها وترفض أن تسكنني.

ربما لأنني أجاور من لا يشبهون روحي، فإذا جاورتَ من لا يشبهك تعكرتَ بما يعكره..

سمعت أمي ذات مرة تحكي عن قصصهم الباهتة ونوادرهم الساذجة، وأحلامهم الشحيحة، ومودتهم القليلة، وحدثتني عن ألسنتهم التي تلوك في الباطل أكثر من الحق.

سمعتها أيضًا تحكي عن ((ورد شان)) إحدى فتيات القرية البائسات، هنا الفتيات على خلاف المدن، جمالهن يماثل طبيعة الريف، طازج وفطري ليس به ما يشوبه سوى عقولهن اليابسة فهن خلقن على يبوسة العقل وقلة اللين وكذلك قلة الحيلة، فهن ضحية تقليد عفن لا يقهر سواهن.

لم تكن (ورد) فتاة استثنائية المظهر بل بسيطة إلى أبعد حد، هي غليظة الملامح، حوراء العينين، سوداء البشرة، ذات شعر أسود مجعد، متوسطة القامة وإن كانت تميل إلى القصر، نحيفة القوام كأغصان الغاب، وكان لها روح أخاذة وضحكة من الجنة، ومع هذا عاشت في أوج وحدتها، بلا أهل، بلا رفقاء، أي بلا وطن، تتشح بالصمت جل وقتها، وكأنه عاصم لها من الوقوع في الفتن والأحاديث الفارغة، وعلى الرغم من ذلك فإنها إذا تكلمت حركت الطير والحجر، ولا يقدر أحد أن يبرح مكانه قبل أن تتم حديثها.

ومع هذا لم يكن ل "ورد" أصدقاء سوى نهر ضحل على أطراف القرية، تجلس بمحاذاته وتنظر إلى صفحته العميقة فيعكس النهر صورة الفتاة السوداء، بينما تغرقه بالأنين والدموع.

يلوك الجيران بأنها ولدت دون أب، وأمها فارقت القرية بعد أيام من ولادتها وهكذا تربت الفتاة في دار رعاية تابع لمسجد القرية، ومن وقتها يلقبها الأوباش ب (ابنة الشارع) أما اسم ورد شان فقد منحها إياه خولي قريتنا.

حينما أتمت الثامنة عشرة تلقت تعاليم محدودة مكنتها من القراءة والكتابة بصورة لا بأس بها، ومع هذا لم ترضَ الفتاة عن نفسها، فعكفت على قراءة كل ما تطوله عيناها، وأخذت تنهل من العلم بلا كلل أو ملل، كذلك أيضًا راحت تسأل أصحاب الحل والعقد في المواضيع صعبة الفهم، بيد أنها كانت تدون ملاحظاتها عن كل ما تسمع أو تقرأ، شيئًا فشيئًا انتقلت من قراءة متلعثمة إلى قراءة متمكنة بل قراءة ناقدة.. علاوة على ذلك لم يكتفِ نهم الفضول المعرفي لديها أبدًا بل أخذت تستقي من نبع المعارف بلا هوادة وكأن في القراءة أنسا يعوض وحشتها ووطنا يعوض غربتها.

كما فتنتها شعارات الحرية، والاشتراكية، والعدالة والمساواة، كل هذه الشعارات البراقة واللامعة على الورق وفي الآن نفسه زائفة، مفارقة للواقع..

تترنح الأفكار في رأسي كأطياف باهتة بينما أنظر الأفق الذي اتشح بالغيوم، وأنصت إلى الصمت الذي يحوط العالم. لطالما يشبه الليل في أنينه صوت ورد المشحون بالشجن والممزوج بالصبر.

كم كان الأوباش حاقدين عليها وكأنها غريمتهم، ولكن كيف لمسكينة مثلها أن تكون غريمة لهذا الجمع الهائل من عديمي الرحمة!

تشبثت عيني هنيهة بالسماء قبل أن تنهمر بغزير المطر. تأملت حبات المطر المتساقطة كل حبة بمثابة دمعة، وكأن السماء تغتسل من أحزانها ليلًا بالمطر، أخذت الرقعة المبتلة تتسع شيئًا فشيئًا حتى افترشت قطرات المطر أديم الأرض، كانت الصورة خلابة أخذتني من شرودي إلى شرود آخر.. ولكن تطفو أمي فجأة وتأخذني من أطيافي لتخبرني أن زوجي على الهاتف أو بالأحرى الذي كان، فلم أعد أعده كذلك، فقد اتسعت فجوة الشقاق الروحي بيننا، بيد أن كثرة الجفاء تميت الحب وإذا مات الحب هانت العشرة ولو هانت العشرة، هان ورخص كل شيء.

هو لم يكن سيئا بقدر أن مساحات صبري قد نفدت بالفعل فلم يعد لدي طاقة لاحتمال أي هين، وهو أيضًا لم يعد لديه أي مساحات للتبرير.. على أية حال طلبت من الخادمة أن تحادثه نيابة عني وتخبره أنني مريضة، لا أبرح الفراش، والحقيقة أنني لم أكذب في هذا الصدد، لأن روحي عليلة، والروح العليلة لا يطيب جسدها وعلى الرغم من كونها علة هاوية إلا أن "خالدًا" قد تشبث بها كحجة ليزورني، وهنا كان علي أن أتدخل لأرجوه أن يمهلني بضعة أيام أخرى، كي ألملم شتاتي النفسي وأستعيد شيئا من رشدي الذي فرط، فوافق على مضض. فعلى الرغم من سوء عاطفتي تجاهه إلا أنني ما زلت أحتفظ به كبقايا زوج أو على الأدق كبقايا علاقة تبدو ناجحة. إلا أنني أعلم أن العلاقات التي تبنى على الكسر بلا شك ستحيا مشوهة، ولهذا أردت أن يمنح كل منا فرصة للآخر بالابتعاد.

فبعيدًا عن الحجج الملفقة، من يحبك يطوف حولك ولن يرضيه طواف غيرك.. أما أنا فكنت أحبذ الطواف حول أي شيء سواه..

بعد أن أنهيت مكالمتي كان علي أن أعاود القراءة عن ورد شان فالتقفت المذكرة والقلم.. (من الهزل أن يأخذ النقاش مع الجرابيع على محمل الجد) سطرت هذه الكلمات في مذكرات الفتاة السوداء.

يمتلئ الدفتر بالعبارات المكتنزة ليس لأغلبها شروح وافية عما تقصده الفتاة بالضبط ولكن هنا دون أسفل العبارة مقولة أخرى إلا أن بعض الحروف كانت ممحوة: (ليس لأحد سلطان عليك، ولا لأي كان أحقية التصرف فيما تقول أو تؤمن، أنت حر، حرية مقيدة بمبادئك. أما التزامك أمام..... والعالم فمنبعه..... والضمير ولا شيء سواه).

مررت ببعض الصفحات والتي كتب بها: (إن أبسط سمات العدل أن تمتلك خصوصية فيما يتعلق بروحك وبدنك. إن هؤلاء "الأبوباش" يعكرون كافة المفاهيم عن الإنسانية ويلوثون الرحمة بتشبثهم المريض بأفكارهم البالية. اليوم هو الثاني عشر من كانون الأول، من عام ١٩٦٨م. وأنا ابنة الثالثة عشرة، قد وقع في حق بدني جريمة شنعاء.. الختان جريمة لا تغتفر في حق الجسد، الذي لا ذنب له في مدى عفتك أو نجاستك) انتهى..

ليس هناك إضافات أخرى دونتها الفتاة فيما يخص هذا الصدد.

أما الصفحة المقابلة فقد رسمت بها جسدا أسمر، هزيلا، يخلو من أي سمات أنثوية، وكأن معالمه قد طمست، بينما كانت أجزاؤه ملطخة بالسحجات والكدمات وعليه بقع متفرقة من الدماء.

مررت بضع صفحات أخرى سطر بها: (وعليك أن تعلن للآخرين حقيقة ما تنتسب إليه عقلًا وقلبًا، وعليهم إما أن يتقبلوا ذلك بصدر رحب أو أن يلتزموا الصمت، لأنه لا يحق لهم أن يتكلموا).

يبدو أن إيمان ورد بالحرية جعلها تخوض معارك ضارية مع أهل القرية. معارك لم تكن لتخرج منها سالمة وقد كان. هي لم تفوت فرصة إلا وتكلمت جهارًا عن كل ما استقر في يقينها، وجال في عقلها، وهذا جد خطير، لأنها في النهاية أجبرت على الرحيل بحجة أنها تهرطق وتدعو إلى الخلاعة والعصيان اللاأخلاقي. وعلى الرغم من كونها اتهامات عارية من الصحة إلا أن أهل القرية المحمومة بالجهل تمموا على الاتهام بالموافقة ما بين تأييد بالقول أو الفعل.

ما زالت عيونها البريئة تتشبث بذاكرتي، وكأنني طوق نجاة وفي الواقع ما كنت أكثر من قشة غارقة في ثباتها وخنوعها. ومن منا يواجه الظلم بقلب جامح؟؟ ومن منا لا يفكر مليًّا قبل الالتزام بالمبادئ وإن كان في هذا التفكير جرم وانحراف، فمن منا لا يفعل؟؟

بينما وأنا أفكر يرن جرس الهاتف، ويصلني صوته الرخيم عبر الأثير.

- حبيبتي جوري، هل نفدت كل الطرق المؤدية إليكِ؟

قالها خالد..

قلت بنبرة متكاسلة:

- إنني حقًّا أود النوم، ولا طاقة لدي للجدال.

- لماذا تلوذين بالفرار في كل مرة؟ لم الخوف مني؟

-ماذا تقول؟؟

-أقول، أقلي عليك اللوم والخجل، فلم أعد أبالي بخيبتنا سويًّا..

-ألن يعد يشعرك وجودي بالخيبة؟؟

صمت مليًّا، ثم قال بصوته الرزين، الحنون:

- لا، فأنت الاستثناء، والأخريات عبث.. أنت حجتي للبقاء حيا.

تنهدت بيأس وأجبته:

- ولكن.. ولكني، لم أغفر بعد خيانتي.

- لا بأس، الجميع يخطأ، عودي إلي يا جوري، عودي إذا استطعتِ سبيلًا للعودة فما عاد الوجود دونك يرضيني.

كان عقلي لا يزال مشوشًا وقلبي المتعثر لا يزال يهوى نحو خيبته. ترددت قليلًا ثم أجبته بصوت خفيض:

- عزيزتك جوري، لا تزال مريضة، اتركها تهدأ حتى تسترد قلبها البائس. فإذا عادت إليك كان خيرًا، وإن لم تعد فهذا شرًّا عفاك الله منه فلا تبتأس يا عزيزي..

أجاب باقتضاب:

-حسنًا، ليكن ما تشائين. ليتك تصبحين على قلب خالٍ من الألم.

في تلك الليلة جفاني النوم، وعكفت على قراءة مذكرات ورد شان. حتى أتممتها.

(اليوم هو السابع من آذار لعام ١٩٧٥. واليوم راسلت صديقي "عوف" حدثته عما وصلت إليه القرية، وكيف تضيق على ساكنيها بوحشتها القاسية. وكيف أنني لم أعد أحتمل وحدتي الباردة بها، وأخبرته أن الخلاف بيني وبين أهلها يحتدم في كل يوم أكثر وأن الصراعات تشتعل أسرع. حتى

غدوت أشعر أنني سجينة ولا بؤس يعلو على بؤس السجين. فكيف الراحة من شقاوة كتبت على الجبين؟؟

وأخبرته كيف أمسيت كل يوم أسأل نفسي أيهما أشر وحدتي أم أهل قريتي؟؟ أيهما أكثر بردًا؟؟ وقد بت أحس أنني غريبة لا أنتمي لهذا المكان الموحش، العفن ولا إلى تقاليده البالية. وأنني موقنة الآن أن التي أنجبتني هي امرأة غريبة من قرية مجاورة وربما هي من إحدى المدن الكبرى التي لا يسمع لها حسيس هنا)).

يا ترى من عوف!! أيعقل أن يكون عشيقها؟؟ ولكنها ذكرت أنه صديق فحسب، إذن هو كذلك. وإنما تقليد القرى صارم بخصوص ثقافة الاختلاط فكيف تجرأت على تحطيم عرف كهذا؟؟ ومع ذلك فإنه ليس عجيبًا جدًّا على ورد أن تفعل هذا بلا خوف، فعلى الرغم من ضعف حالها إلا أنها دوما تنتصر عليهم..

بين صفحات المذكرات عثرت على مرسال قديم، رائحة أدهانه من النرجس:

((كم أنا مشتاقة لكَ يا رفيقي العزيز. وكم أتمنى أن يجمعنا اللقاء عما قريب، بلا ريب هذا محال الآن وخصوصًا هنا. ما زال قلبي المهترئ يذكر كيف امتدت أيديهم النجسة إليك ليخرجونك من جنتهم المنكوبة ويقذفون بك في عمق المجهول، كنت يا رفيقي لا تزال صبيا بريئا لم تلوثك خطيتهم بعد ولكن كانت نفوسهم البغية أكثر قسوة من الشيطان. وأقل رحمة من البهائم. فما هي جريمتك وما هي جريمتي إذ ولدنا لقطاء فالتقفتك الكنيسة وأخذني الجامع وتعاهدنا على الإنسانية فحقد الأوباش علينا، قل لي يا

عوف ما هي جريمتنا؟؟ أهي صداقتنا أم عنصريتهم؟؟ أخبرني يا رفيق كيف يغدو الإنسان بلا إنسانية؟؟ بلا رحمة وبلا شفقة؟؟))

في صفحات أخرى من المذكرة سطرت هذه الاستغاثة:

((أكتب لك، وأعلم أنك أقل حيلة مني ولكني ليس لي سواك لأشكو إليه مرارة حالي. لقد وصلني البارحة أن أهل القرية عزموا النية على ضرورة تزويجي من ابن الخولي، هذا الفتى المدلل الغبي الذي قلت لك أنه لن ينضج أبدًا. وأنت تعلم يا رفيق أن النسوة لا يرغبن برجل أعوج العقل وأعرج القلب، فلا ينفعهن بقايا رجل مشوه بل يبحثن عن وطن فإن لم يكونوا وطنا فلا يقربهن وذلك خير. ولأن لكل امرأة وطن فأنت لي خير الأوطان.. يا رفيقي كل يوم أسمع ضجيج أصواتهم البغيضة وهم يتنابزون بشأني، لقد مللت معاشرتهم وأتمنى الرحيل العاجل من جحيمهم الأبدي.. أنقذني يا عوف إذا استطعت إلي سبيلًا))

كل هذه المراسلات لم تدون بتواريخ محددة ولكنها تبدو قبل عام ١٩٧٨ وهو العام الذي أجبرت فيه على الرحيل.

في نهاية المذكرة كتبت الفتاة موجز الخطبة التي ألقتها على نسوة القرية والتي كانت بمثابة القشة التي قسمت ظهر علاقتهن بها:

(اليوم، هو العاشر من نيسان لعام ١٩٧٨م. وقد ألقيت فيه ندوة نيابة عن كاهنة المعبد أو زوجة الإمام. وقد استمعت إلي الأرواح الميتة بحذر مفرط وكأنني ابنة الشيطان التي هبطت على رؤوسهن الخانعة لتدس السم في العسل. والحقيقة أنني لم أقصد البتة أن أقلق إيمانهم المزيف ولا أن أزعزع تقاليدهم العرجاء. ولكني أردت أن أزيح عنهم المفاهيم المغلوطة التي

تقلل من شأنهن وتعكر صفو عقائدهن. فتناولت قضية ((ملكات اليمين)) وكذلك قضية ((الحجاب)).

من المؤسف أن اتساع رقعة الدولة الإسلامية قد ساهم بدرجة ما في ازدياد تجارة النخاسة. فعلى الرغم من كون الإسلام جاء ليحرر العبيد ويقضي على الاسترقاق إلا أن رؤية الحكام آنذاك وجدت أن تجارة العبيد تصب في مصلحة الدولة العليا فهي تنعش الاقتصاد من ناحية وتستغل لإرضاء أصحاب النفوذ من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن أمر ملكات اليمين حدده النص القرآني بشروط ولم يتركه بلا قيود بل جعل له ضوابط فيذكر الله في كتابه العزيز:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ النساء: ٢٥

أي بإذن أهلهن وليس بإذن تاجر النخاسة!! وآتهن أجورهن، أي إعطائهن مهورهن!! وهل يسأل الأهل ويعطى المهر إلا في الزواج؟؟ قلت هذا وروحت أطالع الوجوه السمراء التي استحالت إلى الشحوب وكذلك لم ينبس أي منهن ببنت شفة كذلك لم يبرحن مكانهن. فقلت والآن لنخوض في شأن ((الحجاب)) من المتعارف عليه في الأثر أن الحجاب عادة يهودية مأخوذة عن العادات القديمة من بلاد فارس واليونان قديمًا.. إذن المثبت في الأثر أنها كانت تسبق الإسلام بقرون طويلة أما فيما يخص المسيحية فإن التحجب مفروض داخل كنائسهم فقط.

لنعود للعرب، كانت نسوة العرب يلوذن بالحجاب من أشعة الشمس الحارقة تاركين أثدائهن عارية، متبرجات تبرج الجاهلية وظل الوضع على هذا النحو حتى نزلت آية الحجاب أو ما يسمونها الحجاب وبها جاء أمر التغطية لمنطقة الجيوب وأمر التغطية بها مباشر وصريح بتغطية منطقة الأثداء ولم يذكر الشعر لا من قريب ولا من بعيد)).

وقبل أن أشرع في إكمال خطبتي امتدت أيديهن إلي، مزقن عباءتي القرمزية وألبسوني عباءة سوداء، فضفاضة وطرحة خضراء، تدلت من رأسي حتى آخر ظهري. ومن ثم طرحوني أرضا وانهالت علي اللكمات والنكزات المتتابعة وعلق شعري بأصابعهن، بينما راحت أحدهن تضرب رأسي بحجر عمود الزاوية. وفي حينها انسابت الدماء على الحصيرة الرمادية البالية، لم أكن أعرف بعد أي الأماكن في جسدي تنزف ولكن حين عدت إلى الوعي مرة أخرى كانت الدماء المتخثرة في أماكن عدة من وجهي.. وكان الخزى يحوط أركان العالم. وكانت النسوة يترقبن أي حركة مني، يتفحصن جسدي الأسود الضعيف بنظرات حاقدة، متعطشة للانتقام.. في كافة أركان الزاوية انساب أنين موجع، تبعه تنابز مهين بحق نسبي. ومع هذا قاومت شعوري الحاد بالغثيان ورحت ألملم شتاتي النفسي وأستعيد قواي، سقطت عدة مرات قبل أن أقف مترنحة ولكني قاومت. وخرجت أخيرًا أجرجر ذيول الحصرة والعار. أما هن -أي النسوة- فكن يتنابزن بشأني، إذ قالت أحدهن: اقتلوها أو أخرجوها من قريتنا فهي من نسب نجس وعقل ملعون أخرجوها من أرضكن قبل أن تخرجكن من الجنة.

أخذت أبتعد شيئًا فشيئًا، أغوص في بقعة بعيدة عنهن حتى تلاشيت كما تلاشين هن أيضًا... رحلت لأنه كان علي أن أرحل منذ البداية، ولأنه ينبغي أن نرحل عن الأماكن التي تؤذينا والتي لا تشبهنا.. غدا قد يأتي عوف.. ولكن قلبي يعتريه كثير من الفزع)).

في نهاية المذكرات قالت الفتاة السمراء: ((ليتك يا رفيقي تسرع إلي، فإن الأرض على رحابتها تضيق على صدري. وعقلي من الظنون آل إلى الجنون ولا شيء سواك قادر على لملمة حزني وتخليصي من همي، ولمن الشكوى إن لم تكن لك!! انتظرني السبت القادم في تمام الواحدة ظهرًا، أمام السلم الذهبي المجاور لمحطة القطار. وإذا لم أحضر يا رفيق فاعلم أنهن فعلوها)).

انتهت المذكرات عند هذا الحد. أو بالأحرى عند هذا اليوم. وفي اليوم التالي لم يصل عوف.. ولم يكن ليصل أبدًا، فربما عوف من البداية لم يكن سوى خيال محض نسجه خيالها المغترب. وبعد أيام قلائل حصلت ورد شان على قرار ترحيلها من القرية إلى المعتقل لأنها خاضت فيما يسمى بإزدراء الأديان وقبيل رحيلها دفنت دفترها بمحاذاة النهر البعيد.. ولكن بعد أيام من رحيلها سمعت أنها ربما فقدت، أو ربما قتلت ليطهروا القرية.. فألقيت على السماء نظرة مملوءة بالخيبة ومن ثم نعقت الغربان... ليس جميلاً أن تكون ناضجًا جدًّا، فهذا يعني مزيدًا من البؤس يتسلل إلى روحك..

في جوف الليل، جاء خالد وطلب أن يمنح كل منا فرصة للآخر، بالبقاء وليس الرحيل. وما زلت لا أدري كيف أذنب أنا ويتوسل هو!! أيعقل أن يكون هذا حبًّا؟؟ أم رفضًا للخسارة؟؟ ومع كل هواجسي وظنوني إلا أنني فضلت الرحيل معه خيرًا من البقاء في القرية الظالم أهلها، أودعت وراء ظهري عملا لم يكن يشبهني وكذلك أشباه إنسانية مسمومة باللا غفران، واللا محبة واللا إنسانية.. وبعد عدة أيام رحلنا سويا وآرفتنا الظلال.

ومن بين العاشقين عاشق لا يعرف الندم، حتى وإن كان بالفراق خيبة تثقل على الصدر وغربة للروح، وهجر يقتلع الصبر، وضنى يمزق الفؤاد.

(حبيبة غيري)

وما العشق إلا عنقود من الوهم، موصول بسلاسل أثيرية من قلب لآخر.. في عقيدة الحب كل شيء مباح أو بالحري كل شيء مبرر، إلا أن الغدر ذنب لا يعرف الرحمة، وجرم لا يصلح التطهر منه. وعليه يعاقب بالجفاء المر، من يجحد الوصل..

هذا الحب العظيم الذي يغوص في قلبي يبدو أنه خطية لا تغتفر، هاك فؤادي العجوز الذي لم يلقَ منكِ محبة، واطرحيه أرضا لأنه كف عن السجود إلا لكِ وما رحمتِ عبدا ذليلا جاء محرابكِ لم يطمع في الجنة إنما حسبه قربكِ وكفى.

ما جحد فؤادي يوما حبك، إنما كان يذوب أكثر في وصالكِ.

كنتِ دومًا سبيلا واعرا علي ولكني لم أطمع قط في سبيل غيره..

هلا سألتِ جوارحي يوما كيف تموت شوقًا ولوعة!!

ألا تستحي من فرط الجفاء كما أستحي من فرط المحبة المعلنة؟

يا ليت الحنين يقل علي الألم، ويا ليت شوقي الغزير ينصرم.

ألم يأن بعد موعد الصفح الجميل بيننا يا حبيبتي؟؟

عزيز..

ذات مساء أيقنت أن لا طريق يؤدي إليك، كثيرا أخبرتك أن تدع الماضي يمضي إلى هاوية النسيان، دعه يرحل إلى جحيمه الأبدي، ولكنك تفضل ألا تفعل، تحب أن تدور في دوائرك المفرغة مع عزلتك الأبدية.

ارحم ما في قلبي من ضعف، ولا تحملني أثما لم أقترفه أبدًا..

عطر..

ليس أسوأ من صقيع الروح شيء فهذه القسوة التي تسربت إلى روحك العليلة ليست أقل بشاعة من هذا الوجود البارد.. ما أبشع قلبك الذي لا يعرف الرحمة؟

عزيز.

اسمح لي يا عزيز، أن أوضح سوء التفاهم الذي وقع بيننا. فهل أنا حقًّا قاسية معك؟ بالطبع أنا جد آسفة لكلماتي الغليظة وعباراتي الفجة. ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالا: مما تنبع القسوة يا ترى؟

ربما من تبلد الشعور تجاه شخص ما أو شيء ما، وفي بعض الأحيان ينبع الإفراط في الجفاء من الفهم المتعسر. وإذا تقابلت القسوة مع تأجج المشاعر وفرط العطاء من هذا التناقض قد يولد الحب الأليم. إذ أنه عطاء مكثف يقابله إهمال مرير.. هكذا يتعذب البعض لأنه بلا شك آفة الحب الإهمال.. ومع هذا فأنا لم أهمل ما بيننا قط وذلك لأنه لم يكن بيننا شيء على الإطلاق.. أكون شاكرة إذا تقبلت كلماتي بصدر رحب، ولكن أرجو أن تكف عن مراسلتي إذ أن ذلك يضايق خطيبي العزيز رؤوف.

عطر الوجود..

يا زهرة حلوة، نمت في قلبي الأخضر الخصب. يا عطرا خالدا يفوح منه الحياة.. باسمك حبيبتي يبدأ شروقي الدافئ.. عللكِ تتساءلين فيما أمضيت فراغي كله، ولكن الإسكندرية مدينة عظيمة مثلك، تعرف كيف تداوي الخيبات، وتضمد الجروح. ولكن دعيني أخبرك، صادفت رجلا في مقتبل العمر يبحث عن فرصة أخرى للحياة أي في مجرى آخر يريد أن يسبح. ووجدت أنه يناسبك كثيرًا، أقصد يناسب قصتك الملفقة بخصوص الحبيب الزائف الذي تريدينه أن يصطحبك إلى حفل زفاف ابنة خالتك. إنه على قدر سذاجته وسيم ولهذا أتوقع أنه يناسبك.. أرجو الرد في القريب العاجل مع تحيات ابن عمتك رؤوف..

يا لقطرات الشهد المتساقطة من ثغره الباسم، آهٍ من رائحة عطرك الطاهر. أشتاقك يا ابن قلبي يا فاكهتي المحرمة. يا سبيلي الذي أحنى استقامتي.. كل الطرق المؤدية إليك واعرة جدا ولكن تهواها نفسي.. لِمَ السفر البعيد ولِمَ الفراق والغربة؟؟ يقول القدماء ((تكون الأوطان حيث يكون الأحبة)) ولِمَ الهجر والوصل مرهون بعودتك؟.. وأما بعد..

أشكو سخريتك في خطابك الأخير.. ما الذي تحاول فعله!! هل تعبث معي؟؟ يا للسماجة!! هل تهدي حبيبتك لرجل صادفته في إحدى الحانات ألا تكف عن السكر والمراهنات؟! ألا تخجل!! لم يبق على زفافنا سوى بضعة أيام فقط. ولا يزال صديقك المخبول يطاردني، لا يزال يظن أنني حبيبته السابقة. متى تخبره الحقيقة؟؟ حينما يصلك مرسالي، عليك أن لا تغفل الحضور العاجل..

خطيبتك عطر

حبيبتي عطر، يا زهرة مسك خالدة.. أهدي إليك سلامي وأبعث لكِ بحنيني الجارف.. إذا كان حبي رهين أشواقي فأنا جد مشتاق لكِ. يا للقلب المسكين المملوء بالمحبة وآهٍ من صدري المختنق بالحرمان. بين قلق وحيرة أكتب إليكِ وأقدر اشتعال قلبك الأخضر بنيران الغضب ولكن يا عزيزتي الحلوة، أنا حقًّا مشغول من رأسي حتى أخمص أقدامي.. ويا للمأساة التي وقعت برفيقي من يوم الحادث الأليم الذي وقع لحبيبته المسكينة، ولاقت البائسة وفاتها المنية.. ومن وقتها يحسب أنها لا تزال على قيد الحياة. ويا للبؤس الشديد إذ يظن أنها أنتِ!! ويا للعجب إذ أنك حقًّا تشبهينها، ولكن عليك ألا تكوني قاسية معه إلى هذه الدرجة المجحفة؛ إذ أن حالته الصحية تتأخر يوما بعد يوم. صبرا يا حلوتي..

وأخيرًا أعذريني إذا لم أتمكن من الحضور في الموعد المحدد لزفافنا..

عزيزك رؤوف..

عزيزتي عطر الوجود، هل سألتِ نفسك يوما ما الذي تتطلعين إليه؟؟

هيا يا حبيبتي فكري مليًّا؟

هل حلمك المؤجل هو الوصول إلى السعادة؟

و لكن الحق أخبرك، الكل في سعي دائم نحو الخلاص من البؤس ولكن هل وجدها أيا منا؟

و مع هذا سأخبرك قناعاتي الخاصة. السعادة التامة تكمن في العشق الخالص ولكن هل فكرتِ من قبل كيف هي المحبة الخالصة؟

بالطبع تعتقدين كما يعتقد الأغلبية العظمى من البشر بأنها الإخلاص والعطاء الوافر لمن نحبهم ونرضاهم، ولكن اسمحي لي أن أحطم هذا المعنى الأناني بل الجاحد تجاه الرحمة والإنسانية.

فإذا كان الحب الخالص بهذا المعنى فأين تكمن التضحية! لأننا حين نعشق ننجرف بالعطاء والإخلاص نحو من تهواهم قلوبنا بل يفيض العطاء منا دون أن ندري وكأنها متعة نمارسها لإشعال الجانب العاطفي لنا ولمن نحب، بينما الحب الخالص، فهو الثمرة ناضجة والاتجاه السامي للمبادئ الإنسانية، الرحيمة، إذ يجعلنا الحب الأعلى أكثر عطاء وتفانيا نحو العالم والبشرية جمعاء.. ومن ثم يكون الكل في الواحد والواحد في الكل. أي لو تخليتِ عن حبك لرؤوف في سبيل حبك لي لأصبحتِ أكثر تحررا نحو غرائزك المشينة وأهوائك الرخيصة ولأصبحت عاطفتك أكثر اتزانا ووقارا وحينها سأحبك فوق العادة..

محبوبك عزيز..

ولكَ يا حبيبي في قلبي ألحان خالدة..

فاسقني من نبعك المقدس وأقل علي السهد، أقل عليك الوحدة والجفاء.. هاك اتفاقي يا حبيبي.. عزيزي رؤوف، لم يعد في استطاعتي بذل مزيد من الجهد لتحمل رفيقك المخبول. عليك أن تفعل شيئا حيال ذلك. حاول أن توقف هزله الزائد عن الحد. وإلا رحلت عنكما للأبد.

مخلصتك عطر الوجود..

يا أيتها الشمس المتوهجة، اجعلي أشعتك الحرة تخترق كبد السماء كي تنيري بصيرة حبيبتي..

لا أستطيع يا عطر، فصديقي لا يزال يحبك أو بالحري لا يزال يتوهم أنه يحبك.

وضميري لا يسمح لي أن آكل تفاحة تخرج غيري من الجنة.. لا يمكنني إتمام مراسم الزفاف قبل أن يعود رفيقي إلى رشده فإذا عاد عدنا وإذا لم يعد ما عدنا إلى الأبد..

عزيزك رؤوف..

في وقت متأخر من الليل، وصلني خطابك الملطخ بالخزى والعار.

ولكَ عندي خبر قد يطرب أسماعك الغثة، الزواج لن يؤجل حتى حين إشعار آخر. بل سيتم في موعده المحدد. وسأختار رفيقك المخبول نيابة عنك لأنه على الرغم من كونه مخبولا إلا أنه لا يزال يحتفظ برجولته التي تعيقه عن التخلي عمن يحب ويرغب.

يا للعار الذي ترحل ملطخا به يا رؤوف.

ويا للوجع الذي سيستقر في صدري اليابس إلى الأبد..

ويا للسعادة الخالصة التي سينالها عزيز..

عطر...

لا بد أن يعاقب بالجفاء المر، من يجحد الوصل.

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ،
فالحب ديني وإيماني..

ابن عربي

(ظل القرنفل)

في قرية بعيدة ونائية، يحل المغيب باكرًا ويفترش عنان السماء ليل طويل، ومعتم. يتخلله بعض الضوء المتسرب من القناديل المتدلية من البيوت المجاورة.. وعلى مزماز عم سليمان تحكى الحكايات وتنشد المواويل الشعبية والترانيم العشقية.

يصطف المستمعون من الذكور والإناث، بشكل دائري كحلقات الوعظ الصوفي ويجلسون قرفصاء، بينما يشرب عم سليمان كوب السحلب الساخن يتجاذب الصبية أطراف الحديث عن حكايات القرى القريبة من قريتنا، ولكن ما أن يسري السحلب في وريده حتى يمتعنا بأشعاره النثرية وحكاياته العشقية، المملوءة بالسمر وبأطياف المحبين.. وها هو مزماره كثير الشجن، ينوح بذكر ظل القرنفل.. وقرنفلة ليست كأي من الأخريات.

حبيبتي سمراء جميلة، كزهرة قرنفل ناضجة، متوهجة الأنوثة، هيفاء القوام. ساحرة العينين. كالياسمينة بين الشوك كذلك حبيبتي بين الأخريات. يفور المسك منها ويحوط الوجدان. من بين ثغرها القرمزي يخرج حلو الكلام.

حبيبتي حلوة، حلاوة مرة يقطر منها شهدًا ممزوج بالمر.

حبيبتي تهرول بين الأحراش ويهرول وراءها ظل أسود غليظ، يتبعها، يلتصق بثوبها الحريري. يقطع منه ما يقطع ويعدو بعيدًا، بعد أن أخذ حلو

ثيابها يرحل. أفقدها طهارة ثوبها.

حبيبتي تقول، وصوتها ساحر كندى الليل وعذب كالناي الحزين، تقول: "ضاع حبيبي على تل بالجوار، ورحت أناديه ولكن صوت المزامير يعلو على صوتي الرخيم.

حبيبي يرقص على التل وبنت من العذروات تجذبه من رسغه، يتبادلان الرقص والقبلات. تدنيه وتبعده بمكر أنثوي خليع. يد على عنقه وأخرى حول خصره. وكثير من الضحكات وقليل من الكلمات. فما حاجة العشاق إلى الكلمات؟ يكفيهم بعض من الألحان، في حضرة الأنغام يتحرر الإنسان من حمله القدري، من عبثه الأبدي..

يدنيها حبيبي أكثر فأكثر. يلتصقان ببعضهما، وهي بين أصابعه انسيابية كعرائس خشبية..

من الذي فعل مثل الذي فعلته معك، منحتك قطعة من روحي.. كأطياف باهتة ستطاردني أشواقي الغزيرة. وبلا شك ستفارقني الراحة أينما وليت وجهي..

وما العيب إذا بعثت إليك يا حبيبي ببعض مني، ظلال من روحي العليلة جدا قد تتبعك أينما ذهبت.

لمَ يا حبيبي تركتني كبنفسج ذابل وسط الأشواك، بعد أن كنت زهرة قرنفل متفتحة!!

هذا التخوم البعيد، يفصل بيني وبين شرياني. حبيبي كالخمر العتيق حفظته في قنينتي الثمينة، وجاءت لعوب كسرت قنينتي العتيقة. وهوذا يرنو إليها بشغف المحبين العظيم، بينما تشغله عني، أجثو على ركبتي لأناجي

الرحيم.. وصوت المزمار يعلو بلا خجل فيحجبه.

يا للوجع الخفي بصدري، أنينه لا يعرف الصبر.

ويا للمأساة إذا أهلي عني قد غفلوا، وراق لهم نوحي وظلمي..

وها هم أشباه رفاقي على الضفة الأخرى يزيدونني بؤسا على بؤسي. ينغزني قولهم الآثم.. صدري يحترق وروحي تذوب. وعلى خلاف الأحبة كلهم فقلبي لا يغفل العذال".

لاح في الأفق ظل قرنفلة ذابلة تترنح ناحية المشرق مرة وناحية المغرب مرة. ترنحت كثيرًا قبل أن تهرول بين الأحراش ويهرول وراءها ظل أسود غليظ. ولكنها رحلت في تلك البقعة البعيدة، ناحية أطراف الوادي. غربت شمسها. هكذا يرحل العاشقون بلا عودة.. ذهبت قرنفل، بعد أن بكت حبيبها الخائن. ضاعت قرنفل بين الأحراش.. من بين أعواد السوسن غابت إلى الأبد...

و في تلك اللحظة ينوح مزماز عم سليمان. عاد الحبيب وليته ما عاد؛ فقد خسر ما له؛ لا بنت التل ترضيه ولا ظل القرنفل يبقيه. فما بقي من قرنفلته إلا سراب الذكريات. والذكرى لا تولد إلا الشجن والأطلال..

أخذ الحبيب يتجرع الألم وهو يناجي العتمة الكونية، ويذكر محاسن حبيبته على ألحان المزمار.. حبيبتي سمراء جميلة، كزهرة قرنفل ناضجة، متوهجة الأنوثة، هيفاء.....

فستنجلي بل لأقول لعلها .. ويحلها من كان يملك
عقدها ، إن الأمور إذا التوت وتعقدت .. نزل
القضاء من الكريم فحلها ..

أبو يزيد البسطامي

(رسالة إلى أبي)

أكتب إليك وأعلم أن مرسالي لن يصل، ودموعي النازفة سوف تنساب لتغرق أديم الأرض دمًا، ومع الأسف العظيم سأواصل الكتابة كمن يواصل الصعود إلى الهاوية... اليوم هو الثلاثون بعد المائة لرحيلك ولا تزال غيوم الفراق والوجع تخيم علينا... يا للوجع الساكن في صدري ويا للحنين المفرط لدي.. آهٍ لو تعرف كم هي الحياة مريرة دونك فلا الدمع يحييك ولا الرثاء يصلك لكن ما بيد الثكلى إلا الرثاء..

أيام مُذلة فارغة من المعنى ولكنما أسقي روحي الصبر فالله على جمعنا لقادر..

ليت اللقاء يجمعنا قريبًا، ويا ليت وجداني المختنق بالوحدة يقل عليّ الألم، فكم من ليالٍ بالفراق مؤرقة فرضت علينا! وكم من الأشجان حصدنا بعد انتظارنا، كل منا ماضٍ إلى سبيله المجهول فأنت إلى الرحيل ونحن إلى القدر المجهول...

أنهكني السير يا أبي. وأرهقت من حمل قدري المنكوب على ظهري الذي مال وانحنى، بينما عليّ مواصلة السير بقدم حافية، متشققة. والدرب واعر، والشخوص متوحشة. وعجلة القدر لا تدور إلا على الضعفاء. بيد أن العدل محبط والرحمة منكسرة والشرف أعوج. والحياة شقاوة وقلبي عليل وجسدي سقيم فأين المنتهى وإلى متى الصراع؟ يوم وراء يوم بلا جدوى، أتعبتني سيزيفيتي جدا..

هأنذا أراسلك وأعلم أن قلبي اليابس سيغوص أكثر في أنينه وأن لا عزاء لدي غير أن العجلة تدور، أضف إلى ذلك، أن طاقتي المفرطة قد ضاعت في الأسف العظيم والحصرة الشديدة على أقنعة باطلة. فيوم رحلت يوم سقطت أقنعة كثيرة وتراءى لنا القبح المدفون في أعماقهم.

على أية حال فمخرطة الحياة مستمرة لا تركع لأحد بل تخضع الجميع لسلطانها فكلنا تروس في آلتها العاتية. ويوما ما تفرمهم العجلة كما جارت علينا. ولا بد أن تحترق أرواحهم كما أحترقنا. غدا، سيكونون بين شقي الرحى كما كنا. بين حصرة مفرطة وقلة حيلة كاملة. وعلى أية حال فكل مكر بمكر يتبع. وكل عين تدور، تجول وراءها عيون. وأي قلب يبطن خلاف ما يظهر، فهو قلب لشرير. دنيا يتبع خبثها شرور..

انظر يا أبي إلى تلك البقعة البعيدة، ها هم الأشباه يقفون، يقذفوننا بالهتان.. كثيرا أخبرتك أن الزيف أكل أرواحهم.. ولكنك كنت تفضل ألا تصدق.. انظر جيدًا ها هي بقايا ظلالهم تحوطنا بهالة كريهة.. كنت تصر أن تراهم حقيقيين بينما هم أشباه وأطلال.. كنت تحبذ رؤية الحياة طاهرة، مستقيمة وهذا لا يمكن على الأطلال الناقصة.. هناك حيث أنت، في مجرى الحياة الأخرى كل شيء بلا زيف. ها أنت ترى الحقيقة كلها.. ولم يعد هناك سبيل للانكار.. هوذا الشبح البعيد يطاردنا، يلهث خلفنا، يعكر صفو كل شيء. ها هي سنة الحياة تجري إلى مجراها الطبيعي حيث الشر سيد الوجود والنبل شيء مفقود.. قلت لك مرارا أن حياة الشرفاء جد قصيرة تحفها المخاطر من كل الاتجاهات ولكنك كنت نبيلا إلى الحد الذي أذاك جدا..

كان لأبي عزبة كبيرة وحظيرة ضخمة، في منتصف العزبة قصر شامخ ومهيب. وهو تابع لأبي بالوراثة تحيط بالقصر بيوت منخفضة لا تزيد عن طابق أو طابقين تبدو بجاور القصر خفيضة الرأس حانية القامة وكأن هيبته المتعالية تجبرهم على الخشوع ولم يكن حال ساكني البيوت بأقل خضوع من حال مساكنهم بل يزيدون عنها في الطاعة العمياء والتملق الرهيب.

على أطراف العزبة يوجد الجسر الكبير الذي يصل العزبة بالقرية المجاورة، يليه الطريق الطويل للزراعية حيث النخيل الفارع والشجيرات الكثيفة الممتدة على حافة الطريق أما الحشائش فهي نامية جدا.

وفي الناحية الأخرى من أقصى الشمال توجد بضع مستنقعات باستثناء البحيرة الصغيرة التي تتوسط العزبة وهي الأقرب للقصر من حيث المسافة. وعلى الرغم من كونها غير عميقة جدا إلا أن العديد من الصبية قد غرقوا بها وكأنها تبتلعهم لغصة عالقة في ماضي تلك البحيرة.

أما الفتيات والنسوة فلا يجرؤن على السباحة بها بل يكتفين بالجلوس على حافتها المنحدرة قليلا إلى العمق، يغسلن الأواني المتهالكة والملابس البالية، التي تهتكت أنسجتها وتهدلت أقطانها بالكاد تبدو كخرقة مرقعة.

ولعلك إذا مررت بمحاذاة البحيرة لوجدت إحداهن تحل ضفائرها المسبسبة من حين لآخر لتغسلها في البحيرة ولكن سرعان ما تخفي ضفائرها المحلولة في طرحتها الفضفاضة حتى لا ينظر إلى حسنها أحد ويقع العيب..

لم تكن العزبة والسرايا والأراضي الخضراء هي كل ما يملك أبي بل يملك ما لا يمكن حصره من عزب وأطيان ومواشي ونعاج، غير تجارة الحرير التي ورثها عن جده الأكبر والحقيقة أنها تجارة رابحة جدا ولكن أبي لم يكن يمتهنها بالحب بل بالإرث ليس إلا، أما زراعة الأرض وتربية المواشي فكانت عشقه الأول يليه حبه السقيم لبناته الثلاثة.

قلبه العجوز كان في طهارة الصالحين يعطي ويصفح بلا كلل بل عن طيب خاطر وحسن نية وربما كان ذلك أكبر دافع للأذية...

مات أبي وتجمعت الذئاب، القريب والغريب سيان فكلهم بعد أبي ظلال، وسراب لامع، لا أكثر. كل من كان يحوطه ويبالغ في تملقه، تبخر كخيوط الدخان الملوث لم يكن هذا الزيف على قلوبنا هين بل عظيم. بيد أنه كان متوقعا..

أما عمي فغني عن التعريف، تسبقه سمعته الملطخة بالسوء والخبث. يغوص في علاقاته الدنيئة مع النسوة، فقراء الأدب. لعلك تصادف شبيهه بالجوار فأمثاله كثر قلما تجده يفعل حسنا أو صوابا بل إن جل فعله مملوء بالعار ومصحوب بالخيبة ومحفوف بالعته، لذا تجد أبي في أواخر أيامه كان يحمل الخزي في نفسه بشأن أخيه العربيد.

أخيرًا. مات أبي وخلت العزبة للعربيد، الذي سولت له نفسه أن يسطو على كل شيء ولأننا فتيات يتيمات بلا سند أو معين لم يكن يحق لنا سوى الصمت والرضا الممزوج بالمر.

وهكذا سطا عمي على كل الممتلكات، أراضي العزبة البحرية، الحظائر، النعاج الثمينة، مصنع الحرير الخاص بجدي الأكبر عبد الحق.

كذلك أيضًا أراضي العزبة المجاورة التابعة لأبي ليس بالإرث ولكن بكفاحه الخاص، وأضف إلى ذلك القصر الكبير الذي نعيش فيه.

تخيل أنت قصر عظيم، وفخم في طليعة يوم أغبر تغزوه البهائم فيتبدل حاله من مسكن عظيم مملوء بالتحف الثمينة إلى حظيرة مملوءة بالخنازير..

لم يكن البقاء سهلا كذلك الرحيل كان هما غير هين فإلى أي واجهة نتجه؟؟ وممَ ننفق إذا تركنا كل مالنا ورحلنا؟؟ كان الخيار مرا ولكننا مع كل هذا الأسف بقينا بغصة عالقة في حناجرنا.. شيئًا فشيئًا تبدلت العزبة من حياة رغد إلى وكر خفافيش، حتى البحيرة الصغيرة التي تتوسط العزبة والتي كانت مجلس النسوة أصبحت كباقي المستنقعات، قلما تجد إحداهن تمر بالجوار، وهكذا أسدل عليها ستائر الخراب والظلام؛ لأن عمي أبو العز لم يكن ليتركهن دون أن يقع عليهن ويحدث العيب الكبير، أو يكتفي في بعض الأحيان بترويعهن فحسب. ولأن الأمان قد خرب، والشرف قد صار سهلا؛ فلم تعد النسوة يجرؤن على المرور بالبحيرة التي غدت ذكرى وأطلال..

لأبي العز ثمانية أولاد، كبيرهم أصغر من صغيرتنا وعلى الرغم من حداثة أعمارهم إلا أن الواحد منهم يبدو كفحل عريض الجثة، يحجب عين الشمس إذا مر أمامها. وعلى قدر فحولتهم على قدر نهمهم المفرط إزاء كل شيء فهم غرائز متحركة مثيرة للقرف. أما كبيرهم فلم يكن بكل هذا النهم المفضوح لأنه أخذ حصة جيدة من التعليم فهذبه العلم شيئًا ما ولكن تبقى البذرة الملوثة مغبرة فهو وإن كان غير شره حيال غرائزه فهو شره في

طمعه الشديد اتجاه كل ما نملك إذ يقول: النسوة لا يرثن، بل يورثن.. خراء، لا ينطق إلا بالخراء..

كان ناظر عزبتنا صديقا مقربا لعمي أبي العز، لذا كان يلاصقه في الطبع الأعوج والخصال القبيحة، ويواري سوءه عن والدي ويحجب آثار خطيته بمكر ودهاء وربما لهذا توطدت علاقته بأبي العز. وهذا الشبح يدعى علام علي، قد يبدو لك هذا العلام للوهلة الأولى أنه خادم أمين يجوز لك أن تتركه مع حرمة بيتك دون حذر أو ريبة، فكيف لا وهو مطيع أمين!! فهل يخون الكلب صاحبه!! والحقيقة أن الكلب لا يخون رفيقه إلا إذا كان مصروعا أما هذا العلام اللئيم فلا رفيق ولا طريق له سوى المال فأنت إذا أعطيته ملكته، أما لو منعته خسرته وصار عبدا لغيرك وبلا شك يبيعك على الفور.

والمؤسف في الأمر أن أبي العزيز لم يكن يعرف عن سوء علام شيئًا بل كان يحسبه خير الأقربين ويحزن كثيرًا إذا وصمه أحد بلفظ جارح أو خارج.

لهذا العلام ابن أخت هو ضابط بالحربية، يدعى رمضان السعيد، ذو خلقة مشوهة وخلق دميم. له وجه أسمر نحيف، متجاور النتوءات، تومض عيناه الضيقتان كالجرذان. تخلوان من أية انفعالات، أقل ما يوصف به أنه منتهك للشرف وعاهر للفضيلة. ولعله من القلائل في تلك القصة التي يتسق مظهرهم مع جوهرهم فقد شوهت خلقته إثر حادث سيارة لتتناسب مع تشوه أخلاقياته اللعينة. هذا السعيد بلا شرف أقل ما يوصف به أنه عربيد آخر..

منذ عدة سنوات كان قد تقدم لخطبة أختي الصغرى، مريم، شقراء ملتهبة الملامح، كوردة حمراء لفحها الشوق توهجت، كعود أوركيد ناضج مفرط الأنوثة. ومن أجل هذا التباين العظيم بينهما، رفضه أبي وكذلك لسوء أخلاقه وتورطه بعلاقات زنا مع بعض المومسات نتج عن إثر ذلك إصابته بوعكة صحية كبيرة، حينئذ قالوا أنه أصيب بالمرض اللعين الزهري، عفانا وعفاكم الله، وحقًّا يا للعار!! ولذلك فأبي دون تفكير طرده على الفور وبعد عدة أيام حدثت مشادة بين أبي وعمي بخصوص هذا الصدد فقال الأخير لأبي: "الزواج سترة الفتيات والرجل لا يعيبه إلا جيبه الفارغ وأي شيء عدا النقود دون قيمة"، فطرده أبي هو الآخر، فخرج حاقدًا عليه والغل ملء عينيه والغيظ بالكاد يخنق وجنتيه يسب ويلعن في خلفة البنات، وفي تلك الليلة كان الغيظ قد اقتلع صبر أبي من جذوره، فتوعد ألا يجعل لأبي العز حصة في الميراث وأرسل في طلب ابنه الكبير ليخبره بذلك وبالفعل طرد عمي وأبناءه الثمانية من عزبتنا قرابة خمسة أعوام، عاشوا محيا ذل وهوان، حتى سمح لهم بالعودة مرة أخرى وعاد أبي الحبيب وأغدق عليهم بالأموال والخيرات وترك لهم البيت الشرقي ناحية الجسر الكبير.

لكن كان الحقد في قلوبهم يزداد يوما بعد آخر وينمو كالسنابل الفاسدة.. خلال الخمسة أعوام حدثت عدة أمور، ومنها أن أختي الكبيرة قد تزوجت وأنجبت طفلين، وأختي الصغرى كانت قد خطبت أكثر من مرة ولكن لم يشأ الحظ. أما عني فلا جديد تحت الشمس إلا من بعض الأحداث القلائل التي كان يدخلني فيها القدر عنوة ولكن كنت أنجو بنفسي

بفرار بعيد.. على أية حال فزقزقة الطيور المهاجرة التي كنت أسمعها من حين لآخر كانت تحمل أبعادا طيبة في نفسي لتخبرني أن هناك غدا أفضل لم تحمله إلينا الأقدار بعد.

لماذا مات أبي؟؟ أو بالحري كيف مات؟؟

سؤال محير، لأنه في الحقيقة قتله الخذى، فالهم والخذلان يقتلان الإنسان دفعة واحدة، هكذا دون إنذار وإن كانت أرواحنا لا تتعكر دفعة واحدة بل على مراحل حتى يصل بنا التعكر إلى مداه هذا المدى الذي لا يصلح معه أي غفران، أو مواصلة كأن شيئا لم يكن. فحين نصل إلى تلك القمة من الاكتفاء أو من التحمل ينهار الصرح العظيم الذي لطالما شيدناه بأعمدة الصبر والجلد هكذا ننهار كما ينهار ثبات الأنهر ويحدث الفيضان الذي يجرف الحياة، فحين خذله عمي بأفعاله المشينة تعكر صفو قلبه البار إلى الأبد.

في صباح أحد الأيام غير الموفقة استيقظت العزبة على فاجعة مخجلة، تحملنا بعدها وعكات نفسية عظيمة. إذ صار المنادي بين الناس يذيع نبأ اغتصاب أبي العز لطفلة لم تتجاوز العاشرة. وأن رجال العزبة يتوعدونه بالقتل ولكن عمي الذي ذاب من بينهم كما يذوب الملح في الماء كان قد أمن نفسه سلفا وجمع ما له من مال وبنين وهرب باتجاه الجسر الكبير، راح هناك وتبخر ربما في إحدى القرى النائية سكن واستقر لفترة من الزمن. ولكن عار فعلته تحملناه وحدنا وكأننا مرتكبوه وأبي الذي لم يتحمل الصدمة أصيب بحزن كبير وتعكر قلبه العجوز بالهم المسموم، هذا النوع من الحزن الذي يسري بين الوريد ويقتل ببطء.

من حين لآخر كانت تصلنا أخبار عمي، إذ استقر وشيد عزبة توازي عزبة أبي بل وشيدها على طراز أضخم وكأنه يتحدى الخوف، أو العزلة أو بالحري يتحدى خوفه العظيم من أخيه وأهالي عزبتنا.

سمعنا أيضًا أنه تزوج أكثر من امرأة وأنجب مزيدا من الأولاد كانت ثماره الغثة تنمو أسرع من اشتعال النار في الهشيم وكأن النبتة الخبيثة يباركها الرب أكثر وأكثر فتتوحش في تكاثرها.

في تلك الأثناء من هروب أبي العز كان ناظر عزبتنا يفرط في تودده لأبي ويبسط طاعته الشديدة علينا جميعا ولكن نفسي كان يملؤها الخوف والحذر منه، أعلم أن بين ضلوعِه طمعا رهيبا وخبثا لا يعرف الرحمة..

في أحد الأيام كنت أتمشى بين الأحراش مرورا بمنطقة البحيرة جلست على حافتها المنحدرة قليلا إلى العمق وبسطت قدماي إلى المنحدر وأخذت أراقب الطاحونة الهوائية التي تبتعد عن البحيرة بعدة أمتار، لم تكن المسافة قريبة ولكن كانت الطاحونة كبيرة إلى الحد الذي يجعلك تراها جيدًا.

بالماضي وأنا صغيرة كنت أرقد بالجوار، أتابعها بلهفة، فحينما أنظر إليها أحس أنها تطوح أحلامي، تحملها من الأرض إلى السماء ومن الأعلى إلى الأدنى تلوحها وكأنها لا تبالي أن تضيعها، بينما هي جل ما أملك في واقعي المجحف.

أما صبيان العزبة كانوا ينشغلون بالطواف حولها والبعض يتراهن للطلوع إليها ولم ينجح أي منهم في طلوعها إلا في خيالهم المجنح.

بينما والشمس تغرب والأحصنة تصهل، انتبهت لحركة بين الأحراش، اقتربت بحذر من بين الشجيرات، تراءى لي شبح هزيل يختفي ويظهر بين الفينة والأخرى، اقتربت أكثر وأمعنت النظر جيدًا حتى اتضحت أمامي صورة رمضان السعيد الضابط العربيد!! قلت بصوت مرتعش:

- ماذا تفعل هنا بحق السماء؟

تباعد وهو يطوح بذراعيه القصيرتين ثم أومأ:

- هل طريق الزراعية والبحيرة من أبعاديات عائلة عبد الحق؟

كنت قد استعدت شيئًا من هيبتي ورزانتي وأنا أقول:

- نعم، العزبة والقرى المجاورة ملك لأبي. هل هناك أسئلة أخرى؟

- لا، ولكن في الحقيقة جئت لأنني بحاجة لنبل أخلاقك؟؟

- المعذرة، لا أفهم ما الذي تعنيه بالضبط؟!

- أقصد أنني أحتاج أن تساندني بخصوص شقيقتك الصغرى.

شحبت وجف ريقي، ثم قلت بتردد:

- مالك وشقيقتي؟

- إني أحبها. أعشقها، أريدها..

قلت بنبرة حازمة:

- دع صغيرتنا وامضِ عنها يكفيها قلب مهترئ بالخيبات.

أجاب والغضب ملء عينيه:

- إن لم تكن مريم لي فهي ليست لأحد أبدا.

حينئذ لم أكن أعي أنه جد صادق فيما يعنيه، فهو من تلك النوعية الخسيسة التي تترك بصمة غير طيبة في نفوس غيرها، بصمة تغيرك إلى الأبد. تمحو كل أثر لبراءة طباعك وسلامة ظنونك. وقد كان فلم تبرأ مريم منه كمرض لعين اخترق حياتها...

في البداية رفض أبي ولكن لهذا الرمضان حيل وألاعيب عدة وبالطبع فالأمر لم يخلو من توسط الناظر وإلحاحه في الطلب ولمكانت علام عند أبي سمح لهذا الرمضان العربيد أن يدخل عائلتنا ولكن مريم كان يعتلي صدرها الشك ولهذا أصرت أن تماطل في الموافقة حتى تتحرى عنه وتثبت سوء نيته وكادت تفعل لولا تدخل شيخ عزبتنا في الأمر وتوسطه هو الآخر لينصف رمضان ويحكي عن طهر أخلاقه وحسن عشرته وتوبته النصوح التي لن ينكثها. وعند هذه النقطة كل شيء قد يبدو مألوفا باستثناء موافقة مريم، فهل حقًّا أيقنت براءته وعفة مقصده فأرادت لها حياة طيبة بجوار هذا التائب؟؟ هل صدقت خدعته وحيله الغثة؟؟

على أية حال مرت أشهر، وكانت الأجواء ملبدة بالمشاحنات إذ لم يخلو يوم إلا ووقعت عركة بين أبناء العائلة. حتى كادت عواصف الغضب تقتلع المحبة من الجذور، كأن الشيطان دس بينهم الشر..

لم يعد القصر الكبير كبقعة فاقعة اللون بين البقاع المجاورة بل استحالت بهجته إلى الرمادية، المعكرة بالهموم..

أما مريم كعود أوركيد يابس لا يحن إلى غصنه العتيق، انطفأ توهجها والتوت أنوثتها تترنح كشبح، هزيل، شاحب. من بين الشجيرات القصيرة والنخيل الفارع قد تتراءى لك كظل لشيء ما، كبقايا أنثى قتلها الغدر.

وعلى أية حال مريم لم تكن ذلولة فهي لم تستجدِ أحدا أبداً، عل كل ما أرادته أن تستعيد شيئًا من براءتها التي فرطت، وصلابتها التي كانت، أرادت أن تعود ك أوركيد متوهج وليس ك قرنفل محترق.

علك تسأل ما الجرم الذي ارتكبه رمضان؟؟

والحقيقة أن كل أفعاله محفوفة بالخيبة والملامة، مريض نفسي، حريف صيد للعذراوات يأخذهن بريئات ويتركهن ثيبات بأرواح مخضبة بالندم ويجعلهن عالقات في ذكرياته الكريهة. فكلهن بعده تغيرن للأبد يضع بصمته المقززة ويرحل تاركا وراء ظهره ثيبا، عانسا، بقلب هرم وعقل تائه وعيون زائغة تخلو من الأمل..

أما أبي فكان كلما رأى مريم انطفأ شيء في نفسه. كان يحترق مثلما تحترق أعواد القمح، كم من ليالٍ بات بعينٍ كليلةٍ!.

ما زلت أذكر كيف كان يمد ذراعيه إليها فترتمي بين أحضانه كطفل عاد أبوه المغترب أخيرًا. كان بكاؤهما مر وصمتهما حصرة موجعة. الأيام كلها كانت بالغة السوء ولكننا كنا نرتضي ونمرر. يكفي أننا سويًّا..

في الغابة المجاورة للعزبة ترتفع الشجيرات على نحو عالٍ جدا، وغصون الغاب الملتفة تحجب البيوت الحجرية الصغيرة. يسكن الغابة بعض الحيوانات، في أعماقها يقبع صمت عظيم ومرعب. النهار ملتهب والليل قارس.. الجو قاسٍ ولكنه أكثر هونا من حالنا.

والدي العزيز رحل بسلام كما يرحل الأبرار، يرحلون بلا صراعات، لكن يتركون العواصف لنا.

قبل الوفاة بعدة أشهر، تعثر والدي ماديا، مر بضائقة مالية كبيرة على إثرها اضطر أن يرهن العزبة والأراضي المجاورة وبيعت المواشي والنعاج، كل هذا ليسد حاجة مصنع الحرير الذي نهب عن بكرة أبيه، سرق بالكامل حتى معداته ومكيناته سرقت هي الأخرى أي بؤس هذا؟!

وعلى الرغم من الرهن والاقتراض إلا أن ذلك لم يحل الكرب بل زاده على سوءه ضيقا، وكلما طلبنا هونا زاد الهم استحكاما وشدة. حتى اكتمل اليقين بانعدام الفرج، كان لأبي رفاق كثرة ومعارف عدة في المحنة تبخروا كخيوط الدخان المتمايل بخجل ثم ما يلبث أن يذوب ويتبدد، لم يعد يسمع لهم حسيس. كثيرا أبصرته يحترق أمامي كالهشيم، ينهار كليا في صمت. كنت أراه يذبل يوما بعد آخر، ينطفئ شيئًا فشيئًا. عل أسوأ ما في المحن أنها تبدي الوجه القبيح للشخوص من حولك، تظهر أسوأ ما استقر في نفوسهم. والأصعب في الأزمات أنها تجعلك ترى كم الزيف في العالم من حولك، قد تتفاجأ حينئذ أننا مزيفون، مصطنعون وجل أفعالنا مفعمة بالأنانية والوقاحة.

ربما الذي يزيد الحدث وجعا أن أبي كان معطاءً، لا يترك غريبا أو قريبا إلا وهبه حصة من العطف والمال عن طيب خاطر وسعة صدر، كان يمنح الآخرين كل شيء يطلبونه. ولكنه دون أن يدري لم يزرع بهم حسنا بل طمعا ونهما إزاء كل ما يملك من أرض وعرض. هكذا يجني الرحماء حصاد خبيث لم يزرعونه قط يجنون حقد وطمع المعطوف عليهم ولكن أليس جدير بالقدر أن ينصف الرحماء؟!!

أخيرًا.. مات أبي مكمودا، متحصرا على كل ما له.. الحزن هذا السم اللعين الذي يدب في القلب حتى يقتله.. إذن قتل! قتله التخلي والخذى، أكم من أرواح كانت مفعمة بالحماس، تسبب الخذى في قتلها؟! بلا شك فالتخلي قتلاه كثيرون..

تقاسم الغرباء والأقارب غنائمنا. يقتسمون الغنائم بعيدًا عن أصحابها؟؟ ما لهم لا يخجلون!! أي وقاحة تلك؟ ولم يكتفِ أي منهم بانتهاك حقوقنا بل ذاع المنادي إننا سارقون..

في البداية كنت متمسكة بالبقاء في القصر الكبير كبقعة محمية بموجب العرف ولكن في عالم مملوء بالانتهاكات لم يعد الوضع آمنا بل مروعا؛ فقررنا الهروب إلى الغابة، مكان نائي، آمن، أهم ما يميزه خلوه من البشر.. إذا جاز لنا وصف الحياة بالغابة، لقولنا:

في تلك الحياة، تجد الأسود والنمور والضباع، وقليلا من الفيلة. وعلى الرغم من أن الفيل الأقوى بينهم إلا أنك قلما تصادف فيلا، وعلى قدر قوته الرهيبة تجد رحمته العظيمة. لعلك صادفت ذات مرة ورأيت الفيل يدافع عن أحد الفرائس الضعيفة فيضطر لمصارعة الأسد حتى يدع الفريسة ويرحل، ولعلك رأيته وهو يبعد جمعا من الأشبال قد انهالت عليه لتوقعه دون جدوى ويخلص منهم بسلام دون أن يؤذيهم ولعلك وجدت الفيل نفسه وهو يحمل بخرطومه المتين أحد النمور ويلقي به بعيدا لأنه اعترض سبيل صغاره. وتجد الفيل من فينة لأخرى يلقي بالطين على جراح البهائم. كل هذا يفعله الفيل دون كلل أو خوف وكأنه يمارس فطرته بحرفية تامة، فطرة أقرب إلى ناموس في عالم الفيلة.

وللأسف أنك في الحياة قلما تصادق فيلا أو تتعثر به والحقيقة أن أبي كان فيلا، محاطا بالذئاب.

بينما في المقابل تجد الأسد الذي لا يعرف الرحمة أو العدل، ناموسه القوة وعقيدته الهجوم، وعلى الرغم من بنيته المتينة إلا أنه لا يصارع إلا إذا أصابه الجوع.

وبعض البشر كالأسود لن يضرونك إلا إذا جاعوا وهكذا يظنون أنهم يفعلون حسنا أو صوابا..

ولعلك تجد الأسوأ من ذلك في النمور ولهم من الخصال القبيحة ما يغني عنهم، فالنمر يهاجم بعلة أو بدون، جبل على النهم والشره لا شيء يشبعه ولا شيء يكفيه وتجد في الحياة كثير من النمور..

والأسوأ من النمور، الضباع، تلك الحيوانات الخسيسة آكلة الجيف تعيش على الفضلات والمهملات لا هو ذئب ولا هو كلب وإن كان وجهه يشبه الذئاب وله صوت الكلاب، يشعرك بأنه هجين الشكل قبيح الطبع وهكذا هم البعض يقتاتون من الفضلات ويعيشون على الجيف.

وبالطبع هناك الفرائس، الذين لا يصلحون إلا أن يكونوا فرائس. ومنهم الغزال، والزراف والبقر وغيرهم وأخيرًا الحمار الذي يعد أسهل الفرائس على الإطلاق نظرًا لبطء عدوه وقلة ذكائه وعلى الرغم من كونه قوي البنيان إلا أنه لا يمتلك شجاعة المواجهة والدفاع عن نفسه فهو أحقر الحيوانات بضعفه واستسلامه..

ومع كل هذا إلا أن عالم الحيوان خير من عالم البشر المستوحشين..

في البداية كنت أناجيك يا أبي كي تعود لأن البقاء دونك موحش ويقض راحتي، وصحيح أنني أمسيت مغتربة، أناجي العزلة وأصغو إلى الصمت. ولكن لأن الحياة شقاوة، ورفاقك بلا شهامة وأقاربك بلا نخوة أرجوك ألا تعود حتى لا ترحل ملطخا بالقهر والحصرة مرة أخرى فالمجيء لن يبدلهم ربما لأنهم جبلوا على القسوة وعلى انتهاك الفضائل، هم يعيشون بلا شرف كذلك يرحلون بالعار الذي ولدوا به.

لم أعد أتوسلك أن تعود حتى لا ترى الحقيقة مفعمة بالخسة والدناءة. فلا وجود للرحماء في العالم بل النذالة اكتسحت سحب الحياة. فأرجو أن تعذرني إذا رجوتك ألا تعود. فالله وحده عليم بحالي المؤسف.. وبقلبي المحترق بالفراق. سامحني يا أبي إذ أخفيت مرارا عليك بشاعات العالم الدنيء فكنت أنت تفضل ألا تعرف وكنت أنا أفضل ألا انتهك براءتك المفرطة.

اغفر لي رسالتي ولكن الوجع الساكن في روحي يفيض عني دون أن أدري.

الحقيقة المؤسفة أننا حقًّا لا نمتلك هذا السند الذي نفخر به، ونراهن عليه، بأنه في أشد اللحظات قسوة وبشاعة سيظل يدعمنا بأريحية مفرطة. وبقلب مملوء بالود. في الحقيقة وددت أن أقول أن كلنا بأرواح مهترئة نشحذ قوة ودعما لا وجود لهما في عالم محفوف بالزيف..

يوم رحلت يوم سقطت أقنعة كثيرة وتراءى لنا القبح المدفون في أعماقهم..

التعريف بالكاتبة

مواليد ١٩٩١

حاصلة على ليسانس أداب قسم فلسفة

صدر لها رواية العاصي٢٠١٣

رواية ترنيمة العاصي ٢٠١٨

رواية الحياة عبر الأثير ٢٠١٨

المحتويات

القصة	الصفحة
الإهداء	٥
المجذوب	٧
بلا غفران..	١٩
الصحون المحطمة	٢٥
التعزيمة	٣٣
الغراب	٤٥
وداع بلا لقاء	٤٩
ورد شان	٥٣
حبيبة غيري	٦٧
ظل القرنفل	٧٥
رسالة إلى أبي	٧٩